

قصة الملحمة

ملحمة السيد Poéma de Mio Cid أول نص أدبي قشتالي يصلنا، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن أول نص مكتوب هو أول نص قيل. وإنما هى قبة محاولات سبقتها، بدأت ربما منذ نهاية القرن العاشر، لتعبر عن صراع الحياة فى عصر تميز بالقلق، وهى نوع من الملاحم الشعرية Poésie épique، لاون من الأدب كان رائجاً فى الأندلس حتى نهاية القرن الخامس عشر، طوال فترة الصراع بين المسلمين والمسيحيين، ولم ينضب إلا بعد أن انتهت الحرب لصالح الطرف الأخير. ولم تكن ملحمة السيد وحدها هى التى تنسب إلى هذه الفترة، وإنما ملاحم أخرى سبقتها فى الأحداث، والتأليف، مثل التى قيلت فى قرنان جونثالث، وفى لوس انفانتس دى لارا، وفى برناردو دل كاييو، وفى شارل مارتل وغيرهم من الأبطال الذين برزوا فى صفوف القتال، من إسبان وفرنسيين، وليس من الضرورى أن يكون السبب دائماً تفوقهم على المسلمين، لأن القصائد التى قيلت فيهم قالتها الجماهير، وقالتها بعد حياتهم بزمن، فما كان فى ذاكرتها من الأحداث أشباح كستها الثوب الذى تريد، وفيما عدا ملحمة السيد فإن الملاحم الأخرى ضاعت ولم تبق منها غير فقرات نثرية، أو أخبار مقتضبة، وهى ملاحم، فيما يرى العلماء الإسبان، سبقت ملحمة السيد أحداثاً وتأليفاً.

ملحمة السيد هى كل ما حُفظ لنا من ملاحم هذه الفترة، وهى لاون من الملاحم الشعبية التى تتحدث عن البطولة وتدور حولها، ونُشرت منها مقتطفات لأول مرة، فى كتاب نشره M. Edelestand du Mériel بعنوان: «قصائد شعبية من

الأدب اللاتيني في العصر الوسيط». ثم طبعت كاملة ولأول مرة عام ١٧٧٩، حين نشرها توماس أنتونيو سانتشيث أمين مكتبة القصر الملكي في كتابه: «مختارات من الشعر القشتالي، السابق للقرن الخامس عشر» ثم طبعت ثانية عام ١٨٥٨، وتوالى نشرها بعد ذلك على نحو واسع منذ أول هذا القرن، بعد أن ثبتت قراءتها النهائية، وحل تلامسها اللغوية، العالم اللغوي الثبت رامون ميننديث بيدال، في طبعتها الخالدة وتمت عام ١٩٠٨. ومن ذلك التاريخ فإن كل الطبعات تنقل عنه، وتفيد مما ألحقه بها من شروح وتفسير، ذلك أن بيدال لم يكن عالماً باللغة أو التاريخ فحسب، وإنما وقف جانباً كبيراً من حياته العلمية الطويلة على كل ما يتصل بالسيد نفسه، تاريخاً وأسطورة وملحمة، ويمكن القول أن ملحمة السيد أولى روائع التراث الأدبي الإسباني، دراسة واعتناء وإقبالاً. وهي أول ملحمة شعرية أوروبية تصلنا كاملة، إنها تسبق ملحمة La Chanson du Roland الفرنسية، وملحمة Les Nibelungen الألمانية.

وصلتنا الملحمة في مخطوطة وحيدة، كانت في القرن السادس عشر موجودة في محفوظات المجلس البلدي لقريه بيبار Vivar، وفي سنة ١٥٩٦م. قام من يدعى خوان رويث بنسخ واحدة أخرى منها، توجد الآن محفوظة في مكتبة مدريد الوطنية، والنسخة الأم التي نقل عنها كتبها مجهول يدعى بير أبات Per Abbat، ويرى المستشرق الهولندي دوزي أن بير أبات هذا كان يعمل مرتلاً في الكنيسة الخاصة بالملك ألفونسو العاشر، وأن اسمه يرد في الوثائق الخاصة بتوزيع الأراضي في أشبيلية، وتوجد في مطلع الجزء الثاني من كتاب «تاريخ إسبيلية» لمؤلفة أسبينوسا، وقد أمر بتوزيعها ألفونسو العاشر عام ١٢٥٣م، بعد أن افتتح والده فرناندو Fernando المدينة عام ١٢٤٨، ويرد اسم بير Per أو بيرو Pero، وكلاهما اختصار لاسم بדרو Pedro، فيها مرتين، إلى

جانب أسماء أخرى من عائلته، مرة عند توزيع الأراضي، والمرة الأخرى عند توزيع الحدائق.

تنتهي المخطوطة الوحيدة التي لدينا بالفقرة التالية :

مَنْ كَتَبَ هَذَا الْكِتَابِ،

فَلْيَلِ اللهُ خَالِقَ السَّمَوَاتِ،

كَتَبَهُ فِي شَهْرِ مَایُو بَیْرِ أَبَاتِ،

عَامِ CC XL. V.

ولكن يداً ثانية أضافت إلى هذه النهاية، في نفس القرن الخامس عشر، فقرة أخرى مما تعود الشعراء الجوالون أن يرددوها على مستمعهم عند نهاية الغناء أو الإنشاد :

لَقَدْ انْتَهتِ الْقَصِيدَةُ،

فَهَبُونِ شَيْئاً مِنَ النَّبِيذِ،

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ فَبَعْضُ الدَّنَانِيرِ،

أَوْ شَيْئاً مِنَ الْمَلَابِسِ تَتْرَكُونَهُ هُنَاكَ،

وَمَا أَجْمَلَ أَنْ تَعْطُونَ الْمَلَابِسَ مَعَ الْمَالِ وَالنَّبِيذِ.

والأرقام الرومانية CC XL. V تعني عام ١٢٤٥ في التاريخ الروماني، وهو ما يعادل عام ١٢٠٧ في التاريخ الميلادي. ويرى دوزي أن يدرو أباد هذا ناسخ الملحمة وليس ناظمها، لأننا نجده بعد كتابتها بستة وأربعين عاماً، أي في عام ١٣٥٣، يتحدث عن مخطوطة الملحمة، فيقول إنه «نسخها»، وهو فعل

يستخدم للدلالة على الكتابة المادية، وليس مقصوداً به الخلق الفنى، لأن عمية الإبداع والنظم الشعرى، يعبرون عنها عادة بالفعل « أَلْفَ ». وهو افتراض يقوم أصلاً على ما يراه تاريخاً لحياة بير آبات، فيما أشرنا إليه من قبل.

غير أن المختصين في دراسة تطور الخط اللاتينى المستخدم في الأندلس المسيحية يقولون إن طابع الخط الذى كُتبت فيه المخطوطة لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من القرن الرابع عشر، ومن ثم فإن مينيديث بيدال يرى أن هناك C ثلاثة ساقطة في التاريخ الذى بأخر المخطوطة، ومعها يجب أن يصحح فيكون عام ١٣٤٥ بالرومانى، أى ١٣٠٧ بالتاريخ الميلادى.

وهناك من يرى، اعتماداً على تقاليد الشعراء الجوالين، أن بدرو أباد لم يكن ناسخاً ولا مؤلفاً، وإنما عمد إلى عدد من القصائد التى كانت شائعة على أيامه عن السيد فالق بينها وأعاد بناءها من جديد. وعلى أى حال فإن الدراسة اللغوية للمخطوطة التى بين أيدينا تظهر بوضوح أن النص نقل عن رواية مكتوبة وليست شفوية، وأن هناك عدداً محدوداً من المخطوطات، وربما كانتا اثنتين، اعتمد عليها الناسخ. وبجانب هذه المخطوطة الوحيدة للملحمة، لابد أنه كانت هناك مخطوطات أخرى، وربما مختلفة فيما بينها، قد ضاعت ولم تصلنا، وأن إحداها على الأقل كانت أصلاً للملحمة، والذى ورد فيما يسمى «مدونة عشرين ملكاً من قشتالة Cronica de Viente Reyes de Castilla» وقد كُتبت في القرن الرابع عشر، نفس القرن الذى عاش فيه بدرو أباد، ودونت نص الملحمة نثراً، لتضمها إلى تاريخ مملكة ألفونسو السادس. وواضح بجلاء أنها تعتمد على أصل يغاير الأصل الذى اعتمد عليه بدرو أباد، لأن سير الأحداث في المدونة يغاير سيرها في النص الشعرى. ولكنه على أى حال كان عوناً كبيراً على تثبيت نص الأغنية وتصحيحها، وإضافة بعض الأشعار

الناقصة، وملء الفراغ الموجود في النص، وتكملة بعض الصفحات الساقطة، لأن النص الشعري، أى مخطوطة بدرود أباد، وصلنا تنقصه الصفحة الأولى وصفحتان في الداخل.

سواء أكان النص الذى بين أيدينا من صنع فرد واحد، أو شارك في بنائه أفراد عديدون، على ماسنرى، وسواء أكانت الفكرة نفسها تعود إلى شاعر جوال فرد، ابتدع القصة وصاغها، أو كانت هممة جماعية، انبثقت تلقائياً، إعجاباً بالبطل وافتناناً به، في أمكنة مختلفة وزمن متقارب، فالذى لاشك فيه أن الشعراء الجوالين والرواة من بعد، قد حوَّروا في الملحمة، نقصوا منها أو أضافوا إليها، أو أعادوا ترتيب أبياتها، وجرى كل واحد منهم بأحداثها على النحو الذى يرضى ذوقه أو عاطفته، حتى إذا شاعت وراجت وبدأ التدوين يسك بما تثار منها، انتهت إلى شاعر أخير أو إلى شعراء متعددين لانعرفهم، فالتقط الروايات كلها أو بعضها منها، وصنع منها الملحمة على النحو الذى هو بين أيدينا الآن، فجاءت متماسكة لا يستطيع إلا أمهر العارفين بتحليل الأسلوب الأدبى التمييز بين عناصرها المختلفة.



إلى أى تاريخ تعود فكرتها الأولى؟ يكاد العلماء يجمعون، اعتماداً على دراسة إشارات القصائد وعلى اللغة، على أنها تعود إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر، وأنها أُلِّفت في حياة الملك ألفونسو السابع الملقب بالأميراطور المتوفى في عام ١١٥٧م، لأن الشاعر وهو يعدد رفاق الملك ألفونسو السادس ذكر الكونت رامون دى بروجونيا (١٠٩٠-١١٠٧م) والكونت إنريك دى بروجونيا (١٠٩٤-١١١٤م)، صهرى

الملك، وأشار إلى الأول منها ونعته بأنه أبو الإمبراطور.

وعندما أُرِفَ الموعد ذهباً إلى اجتماع البلاط،
وكان الملك الطيب دون ألفونسو أول من حضر،
وأيضاً الكونت دون إنريك والكونت دون رامون،
والأخير كان أباً من دُعِيَ بالإمبراطور الطيب^(١)

وبينا يذهب مثنى ومثنى بتاريخها إلى أبعد من ذلك قليلاً، فيرى، في ضوء
دراسته للنقود الوارد ذكرها في الأغنية، أن الشاعر الجوال الذي ابتدعها عاش
في الثلث الأول من القرن الثاني عشر، يرى متناهيث بيدال، مستدلاً
بالآيات التالية، وبالبيت الأخير منها على نحو أخص، على أن الملحمة كانت
صدي لخطوبة تاريخية تمت عام ١١٤٠م:

وتحدث رسل ملكي نبرة وأرجون،

ثم اجتمعوا فيما بعد مع دون ألفونسو ملك ليون،

وكانت رائعة حفلات زواج دونيا إلبيرا ودونيا سول،

وإذا كان الزواج الأول عظيمًا، فقد كان الثاني أروع وأعظم،

وبه أصبحت الأسرة أكثر شرفاً،

انظر كيف يزداد كل يوم شرفاً من وُلد في ساعة طيبة،

فابتاه أصبحتا سيدتي نبرة وأرجون،

وملوك إسبانيا اليوم من أحفاده، وإليه ينسبون^(٢).

(١) القصيدة رقم ١٢٠.

(٢) القصيدة رقم ١٣٥.

فى هذا العام، عام ١١٤٠م، كان غرسية راميريث ملك نبرة وحفيد السيد، وألفونسو السابع ملك قشتالة، يتهيآن للحرب ثم عدلا عنها، بعد أن توسط بينهما أفراد الأستين الملكيتين، وكبار رجال الدين، ولضمان السلم واستمراره اتفقوا على تزويج الأميرة الطفلة «بلانش»، ابنة غرسية راميريث حفيد السيد، من الأمير الطفل شانجه ولى عهد قشتالة، والذي سيصبح فيما بعد ملكا تحت اسم شانجه الثالث، ولأن كلا من الأميرة والأمير كانا طفلين، فقد اتفق على أن تكون هذه مجرد خطوبة، أما الزواج فقد تم بعد ذلك بأحد عشر عاماً، أى فى سنة ١١٥١م، وكانت هذه المناسبة، والأفراح التى أحاطت بها السبب فى تأليف الملحمة.

لكن دووى وهو حجة فى الدراسات الأندلسية فى العصر الوسيط، لا يرتضى هذا الرأى، ذلك أن الملحمة لم تذكر ولا مرة واحدة اسمى الأميرة «بلانش» أو الأمير «شانجه»، ولو كانت ألقت ابتهاجاً بزواجها لاقتضى الحال أن يشار إليها ولو عرضاً.

وفى رأى كان تأليف الملحمة لسبب بعيد عن هذا، كان رد فعل جماهيرى وعفوى من عامة المسيحيين فى الأندلس لإقصائهم عن الحروب الصليبية فى المشرق. لقد توفى السيد فى بلنسية بعد أن استولى عليها، فى نفس العام الذى استولى فيه الصليبيون على بيت المقدس، عام ١٠٩٩م، وكان لاستيلاء هؤلاء الصليبيين على المدينة، التى تألم فيها المسيح، صدى عميق فى كافة أنحاء أوربا المسيحية، فانتشر الخبر فى سرعة مذهلة، وتغنت الجماهير المسيحية بأسماء أبطاله، وكان للمسلمين فى الجانب الآخر من الأندلس قصصهم وأبطالهم ونضالهم، فأصبحت حاجة الأندلسيين المسيحيين ماسة إلى أبطال وقصص يواجهون بها المجتمع المسيحى على أيامهم، ويقفون معه على قدم المساواة. وليس من قبيل المصادفة وحدها أن معظم الروايات المسيحية الأندلسية

التاريخية، منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، تقدم الحادثتين، استيلاء السيد على بلنسية واستيلاء الصليبيين على بيت المقدس، جنباً إلى جنب. والحق أن وجه الشبه بين كلا العمليتين كان واضحاً، فكلاهما قام به جماعة من الفرسان ولم يقم به ملك؛ واستهدف الاستيلاء على مدن إسلامية، مع اختلاف الدافع عند السيد عنه عند الصليبيين. وهكذا أصبح السيد بطلاً شعبياً، وليس بطلاً قومياً، فلم تكن ثمة قومية إسبانية قد نشأت بعد فينسب إليها، واعتبر مثلاً أعلى للشجاعة المقرونة بالتقوى والجرود والنبيل والفروسية، وامتزج ما كان من صفاته حقاً، بما تخيله الناس فيه مثلاً، فلم يعد من الميسور اليوم التفرقة بين الحقيقة والخيال.



وإذا كان العلماء قد انتهوا على نحو يكاد يكون قاطعاً، بأن الأغنية كتبت قريباً من عام ١١٤٠، فإن معرفة المؤلف الأول، أو حتى تحديد ماهيته، شيء لم يجزم به أحد بعد. وقد عكف مننديث بيدال على دراسة الطرق الواردة في الملحمة، بتأن وحذر وعناية؛ فوجد أن الشاعر رغم أنه يذكر مدناً تغطي كل إسبانيا تقريباً ويصف عدداً من الطرق الهامة، يعطى أهمية خاصة، ويركز كثيراً على الطريق الذي يربط بين بلنسية وبردغش، والذي يرتاده أبطال الملحمة أكثر من غيره، فهو يعدد المحاط التي وقفوا عندها، ويسمى البلاد التي عبروها، ويذكر الجبال التي مروا بها، ويسجل بعض الحكايات الغامضة التي تسقط في ذاكرته أثناء السير، فيروي لنا، ودون مناسبة، حكاية من مدينة سان امستان دي غراماج لا صلة لها بالسيد، ومجهولة تماماً، ليس لدينا فحسب، وإنما لكل القدماء الذين ليسوا من هذه المنطقة:

وعبر جبال مونتس كلاروس همزوا خيولهم،

وعلى الشمال منهم كانت مدينة جريثا، وعمرها بنو علم قديماً،
والكهوف التي سُجِّت فيها «إلفا» من قبل^(١).

ويعطى للمنطقة أوصافاً جغرافية دقيقة، تعكس معرفة جيدة بالأرض الواقعة بين مدينتي مدينة سالم ولوثون، ومعرفة على نحو أقل بمنطقتين مجاورتين لها، وهما المنطقة الممتدة من غابات كوريس إلى الشمال الغربي، ومن مدينة قلعة أيوب إلى الشمال الشرقي، بين مدينتي سان استبان دي غرماج ونيبالوس. ولقد أنفق الشاعر أربعمائة وخمسين بيتاً من الشعر في وصف الاستيلاء على مكانين صغيرين هما قسطلون والقصير، وهو أمر لاشك في حدوثه لكنه ليس بذى أهمية، فلا المصادر العربية تشير إليه، ولا التاريخ اللاتيني للسيد يعرض له. والشئ الوحيد الذي يفسر اهتمام الشاعر بها أنها يقعان قريباً من مدينة سالم على حين يصف الشاعر غزو السيد لقرى وحصون بريانة والمنازة والشارقة ونيبا كاديًا ومريبطر في ثمانين بيتاً. ويخص حصار بلنسية واستيلاء السيد عليها بمخمسين بيتاً فحسب، رغم أنه أكبر انتصار حرى حققه في حياته، واقعا وأسطورة. وينبغي أن نلاحظ أن المنطقة التي بين مدينة سالم ولوثون، والتي يكثر الشاعر من الحديث عنها، لم تكن موطن أحداث ذات أهمية حرية، وكل ما هنا لك أن أبطال الملحمة في ذهابهم وإيابهم كانوا يمرون بها، كما يمرون عبر مناطق أخرى غيرها، لا يعرفها الشاعر ولا يصفها، ولا يعرض لها ولا بكلمة واحدة، فهو يجهل تماماً الطرق ذات الأهمية البالغة خلال العصور الوسطى، وعلى نحو ما حتى أيامنا هذه، كالطريق الذي يصل بلنسية بطليطلة أو الذي يصل بينها وبين قشتالة ماراً بسلسلة جبال وادي الرمة، لكي يتجه بعدها إلى كاريون أو إلى بلد الوليد أو إلى سهاجون وكانت أيضاً معبراً مستمراً

(١) القصيدة رقم ١٢٨.

لشخصيات الملحمة، تقطعها جيئة وذهابا، فإذا عرض لها، فعل ذلك خطفا،
أو لجأ إلى التعميم، كما في الأبيات :

ووصل مينايا إلى بلد الوليد.

ومرّت الهضاب والجبال والمياه،

ووصلوا إلى بلد الوليد حيث الملك ألفونسو هناك^(١).

أو اعتذر بأن تعدادها والوقوف عندها يُملّ يذهب بإقبال السامع عليه،
كما في الأبيات :

وخلفهم استقرت أرض بلنسية في سلام،

وذهب مينايا ألبار هانيث إلى قشتالة،

وسأع الأمكنة التي نزلها، لا أود أن أنقل بها عليكم^(٢).

ومن ثم يمكن الظن بأن فكرة الملحمة بدأت في مدينة سالم أو ما حولها،
وهو ظن يجد له في بعض ألفاظ الملحمة سنداً، فالمؤلف يستخدم كلمات متعددة
في شكلها الأرجوني، والذي كان رائجاً في مدينة سالم، ومهملاً في برغش
عاصمة قشتالة، ومازال حتى اليوم يكوّن إحدى الخصائص الواضحة في لهجة
أقصى الجنوب الشرقي من قشتالة القديمة، والتي تمثلها اليوم مقاطعة سوريا،
لأن هذه المنطقة تعرضت في الفترة التي سبقت تأليف الملحمة لتأثير أرجوني،
وكانت دائماً منطقة نزاع، تحاول أرجون أن تنتزعها من قشتالة.



(١) القصيدة رقم ٩٨.

(٢) القصيدة رقم ٨٠.

ومن بين المحاولات التي تمت لتحديد المكان الذي أُلقت فيه الملحمة ما قام به العالم الألماني رودولفو بير Rodolfo Beer، فقد ارتأى أنها كتبت في دير كاردينيا، قريباً من برغش، وهو رأى يضعفه ما استخلصناه سابقاً من الوصف الدقيق الذي يقدمه الشاعر لمناطق جغرافية معينة، إلى جانب أنه لا يقدم لنا، في نفس الوقت، ملامح خاصة بالدير، فالشاعر لا يعرف كاردينيا إلا على أنها موضع لدير شهير في قشتالة. ويجهل اسم رئيس الدير، وكان معاصراً لنفى السيد، وبأن عوضاً عنه بشخصية أخرى أسطورية يسميها شانجه^(١)، بدلا من الاسم الحقيقي لرئيس الدير وهو سان سيبوتو وهو شخصية ثابتة تاريخياً، وأشرف على الدير مدة خمسة وعشرين عاماً، وترك أثراً باقياً يستحيل على شاعر من كاردينيا أن ينساه، أو لا يعرض له عندما يتحدث عن موت السيد، وقد دفن في نفس الدير.

أما ج. بورتوني G. Bertoni الإيطالي، فيرتضى رأى ميننديث بيدال في تحديد الموضوع، ولكنه اعتماداً على الأبيات التالية :

يقومون على خدمته، ويكونون له حراساً أقوياء عبر الطريق،
وأعطاه ألف مارك من الفضة يقدمها لكنيسة سان بطرس،
على أن يعطى نصف المبلغ للشهاس دون شانجه^(٢).

يرى أن الأغنية لها طابع ديني أكثر منه ملحيمياً، كما أنها تمثل على نحو واضح خصائص ما عرف بشعر الحدود، وهو ما يفسر اعتناؤها باحتلال السيد لمدينتي قسطلون والقصير، لأنها تقعان على الحدود الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين.

(١) انظر القصيدة رقم ١٤.

(٢) القصيدة رقم ٧٧.

يعزز الرأى فى تحديد مكان تأليف الملحمة بمدينة سالم وما حولها، أنها لا تشير إلى المستعنين، أبى جعفر أحمد بن هود، ولا إلى المؤمن أميرى سرقسطة، وعمل السيد لحسابها زمنأ، فدافع عنها، وقاتل أعداءها ماجوراً، ولا إلى القاضى ابن جحاف، القائم بأمر بلنسية عند استيلاء السيد عليها، وقد أمر به غداة انتصاره فأحرق حياً، ولا إلى بنى تجيب أمراء وشقة ولا ردة وطرطوشة، ولا إلى القاضى أبى الوليد الوقشى، ولا إلى مسلمين آخرين ارتبطوا بالسيد وأحداثه ارتباطاً كبيراً، فى الوقت الذى يقدم لنا القائد ابن غلبون كشخصية هامة، رغم أنه مجهول تاريخياً، ولو أنه معروف للشاعر تماماً، مجرد أنه يعيش فى مدينة مولينا، قريباً من مدينة سالم، وهى مدينة إسلامية على حدود قشتالة، وكذلك المبارزة التى تمت فى كوريس، وهى الحدث الرئيسى فى الملحمة، مع أنها غير معروفة، وتدخل فى باب الحكايات المحلية لمدينة سان استبان دى غرماج، وهى أيضاً مدينة صغيرة وقريبة من مدينة سالم.

فلحمة السيد إذن ألفت على حدود قشتالة مع الدولة الإسلامية، وكانت قشتالة خلال القرن الثانى عشر، فيما يبدو، مهبط إبداع شعرى، كما أبدعت الحدود مع الدولة الإسلامية فيما بعد ذلك بقرنين من الزمان، أى فى القرن الخامس عشر، لوناً آخر من الأدب هو شعر الحدود *Los Romanceros de la Frontera* ولحسن الحظ فإن جانباً كبيراً منه، بفضل اكتشاف الطباعة، وصلنا مكتوباً.

لقد استولى المسيحيون نهائياً على مدينة سالم فى عام ١١٢٠، وكُتبت ملحمة السيد فى هذه الأعوام، أو بعدها بأعوام لا تتجاوز العشرين، ويمكن أن نفترض أن الشاعر وُلد هناك بعد هذا الاستيلاء، أو بعد الاستيلاء الأول الذى تم فى عام ١١٠٤م، أو هو من نواحي سان استبان دى غرماج وألفها

لُتشد في الميدان العام بمدينة سالم، وكانت ملتقى التجار والقادمين من مختلف الجهات، بل يمكن القول، في ضوء لغة الملحمة، أن الشاعر كان من المستعربين Los Mozarabe، أى من المسيحيين الذين يجيدون اللغة العربية إلى جانب اللغة الرومانشية، ويسرون في حياتهم وفق التقاليد الإسلامية، وأقرب الظن أنه عاش في مدينة سالم فترة من الزمن خلال عهدها الإسلامي.

بين مدينة سالم ومدينة سان استبان دى غراماج توجد مسافة تبلغ الثمانين كيلو متراً، وهى نفس المنطقة التى تجعل منها الملحمة المركز الدرامى لنمو الأحداث وتطورها، وفيها جرت المباراة بين السيد وخصومه أميرى كاربون عندما اتهمهم بأنهم أهانوا بنتيه بعد الزواج منها، وهو حادث تذكره الملحمة ولا سند له من التاريخ، وحدث ذلك فى غابات كوريس، وهى تقع قريباً من سان استيان دى غراماج، ويبدو أنها كانت صغيرة للغاية، حتى أن موقعها كان مجهولاً للشخص الذى أعاد بناء الملحمة فى القرن التالى. بينما يسترعى اهتمامنا الشديد، دقة المعلومات، وصدق الأخبار، التى تقدمها الملحمة فيما يتصل بمدينة سان استبان دى غراماج. وكان موقعها عندما نُقِي السيد من قشتالة عام ١٠٨١ على الحدود الواقعة عند سيرادى مييدس، وقريباً منها كانت قلعة هنارس، وسكانها من المسلمين، وقد أخلدوا إلى السلام بعد أن عقدوا مع ألفونسو السادس حلفاً، والذى آله أن يرى السيد يهاجمهم. وإنه لمن الغرابة بمكان أن تبقى مثل هذه الأشياء الصغيرة فى ذاكرة الناس، ولزمن طويل، حتى يأتى شاعر جوال فيجعل منها مادة للمحتمة.

وعلى النقيض من هذه الدقة تكون الأخبار المتصلة بمدينة سالم، ففيها اضطراب وخلط، وأشياء غير مفهومة. وأبرز الأخطاء المتصلة بها أن المؤلف يعتقد أن ألفونسو السادس استولى على المدينة فى حياة السيد، بينما لم

يحدث ذلك إلا في عام ١١٠٤، وامتلكها الفونسو لأربعة أعوام فحسب أما الاستيلاء النهائي عليها، من قبل المسيحيين فيجب أن يكون قد وقع قريباً من عام ١١٢٤م.



هذا التناقض بين دقة الأخبار التي تتصل بمدينة سان استبان دى غرماج واضطراب الروايات التي تتصل بمدينة سالم، جعل العالم الإسبان منسديث بيدال يظن بأن ملحمة السيد التي وصلتنا، هي في الأصل ملحمتان، وهما مؤلفان؛ وأن إحداهما هي إعادة بناء للأخرى. نعم كان هناك شاعران واحد من سان استبان دى غرماج، ويغلب على الظن بأنه كتب ملحمة قريباً جداً من مطلع القرن الثاني عشر، بسبب موت السيد عام ١٠٩٩م، وهو دقيق في سرده للوقائع، يعرف الأحداث التي يتغنى بها، كما لو كان شاهداً، أو لقي الذين صنعوها. مثلاً عندما يتحدث عن زواج حفيدة السيد لا يسميه زوجاً وإنما خطوبة، وهو الشيء الثابت تاريخياً، وتتضمن أشعاره أخباراً أخرى لها أصول تاريخية أيضاً، مثل هجوم السيد على كونت برشلونة رامون برنجبر وأخذه سجيناً للمرة الثانية، ثم إطلاق سراحه عام ١٠٩٠، وفي صراع السيد معه في المرة الثانية، تختفي من مسرح الأحداث، إحدى شخصيات الملحمة الرئيسية، وهو البار هاننيث لأن مرافقته للسيد تنتهي تاريخياً عند عام ١٠٨٤.

أما الشاعر الآخر فقد جاء بعد الأول بزمن، فهو غريب عن الأحداث التي وقعت في عصر السيد، وكل ما هنالك أنه شهد أحداث خطوبة حفيدة السيد، الطفلة بلانش ابنة غرسيية راميريث ملك نبرة، وولية عهده، إلى الطفل شاحجه ولى العهد، وأكبر أولاد الفونسو السابع ملك قشتالة والملقب بالإمبراطور، وكانت الخطوبة طريقاً لتسوية نزاع حاد بين قشتالة ونبرة فعقد

الصلح بينها وتعد شبح الحرب وحل السلام، ورثت توطيد ذلك بمزيد من توثيق الروابط العائلية بين الأسرتين، فتزوج الملك غرسية نفسه من دونيا أزاكه، ابنة ألفونسو السابع غير الشرعية، واحتفل بعقد الزواج بينهما في مدينة ليون عام ١١٤٤، في حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو التي كانت معروفة في تلك الأيام؛ من موسيقا ومبارزة ومصارعة وغيرها. وحضرها الأمراء والأشراف والفرسان في الملكيتين، وكان ضا صدى كبير في الجانب المسيحي كله؛ وأحس به الشاعر فأراد تمجيدَه؛ ومن ثم عاد إلى الملحمة القديمة التي صاغها شاعر سان استبان دي غرمناج، عاد إليها نصاً مكتوباً، أو ملتقطاً لها من أفواه الناس؛ بعد أن تعرضت للتحويل والتحريف والزيادة والنقص، وصبها من جديد، ولكن أحداث السيد نفسها؛ وما جرى على أيامه، كانت بعيدة عنه؛ فجعل استيلاء ألفونسو السادس النهائي على مدينة سالم، وقد تم في عام ١١٢٤؛ يعود إلى عصر السيد نفسه وقد توفى قبل أن يم بمخمسة وعشرين عاماً. والحق أن شاعر مدينة سالم هذا إن صح التعبير، يضيف ظروفاً ووقائع جوهرية لا يرتضيها الواقع، ولا تجدها سنداً في أي مصدر تاريخي؛ لقد تصرف كصاقل للملحمة، دون اهتمام بالحقيقة نفسها، وعرف كيف يُنمى أحداثها ويطورها؛ ويعطيها نغمًا شاعرياً؛ ومزيداً من الدرامية والجدائية، وتفاوت إصلاحه في أجزاءها الثلاثة، فهو في النشيد الأول الخاص بنى السيد حذر لم يدخل عليه من التعديل إلا الشيء اليسير، بينما تناول النشيد الثاني الخاص بزواج بنتى السيد، بإصلاح أوضح مما فعل في الأول، على حين تعرض النشيد الثالث والأخير؛ والخاص بالمبارزة؛ لكثير من التبديل والتغيير.

بق أن نشير إلى أن هذه الاكتشافات القائمة على الموازنات التاريخية والجغرافية واللغوية لا تمس إلا التغييرات الجوهرية والكبرى، ومن المؤكد أن

الملحمة لحقتها إصلاحات وتعديلات وتحويرات أخرى، عبر انتقالها إلينا شفويًا، أفلتت منا، ولا يستطيع أى باحث الإمساك بها مهما بالغ في الدرس والتدقيق.



تتكون الملحمة من ٣٧٥٣ بيتاً من الشعر، جاءت في ثلاثة أناشيد، وكل نشيد يضم عدداً من القصائد. ويدور حول حدث محدد.

النشيد الأول يقص علينا الأحداث التي أدت إلى نفي السيد، وتتصل به وكيف أن الملك ألفونسو السادس أرسل لذريق دياث دى بيبار، الملقب بالسيد لكى يقبض الجزية من ملك أشيلية المسلم، وكان يدفع الجزية للملك قشتالة.

وفي ذلك الوقت كان المظفر ملك غرناطة يكره المعتمد ملك أشيلية حتى الموت، وقد تعود المظفر بمساعدة الفرسان الأغنياء القشتاليين، وعلى رأسهم الكونت غرسية أو ردونيث، وفرتون سانتشيث صهر ملك نبرة، أن يتوغلوا في أراضي ملك أشيلية وأن يثيروا فيها الخراب والدمار. لقد جرت العادة في ذلك الوقت أن يرحل الفرسان المسيحيون ليقاتلوا تحت راية الملوك المسلمين، حباً في المغامرة، أو طمعاً في الأجر، أو منفين من ملوكهم المسيحيين.

وكان لذريق دياث دى بيبار في رفقة جيش مختلط من مسلمين ومسيحيين ذاهباً إلى أشيلية لقبض الجزية، فأرسل ينذر ملك غرناطة ومن معه من فرسان قشتاليين أن يكفوا عن مهاجمة المعتمد، فلما لم يستجيبوا لرجائه، خرج مدافعاً عنه، وقريباً من حصن قبرة انتصر على الكونت غرسية أوردونيث وسجنه لمدة ثلاثة أيام، واستولى على ما معه من ثروة وأذله منتزعاً شعيرات من لحيته، وهو أقسى ما يمكن أن يتعرض له فارس من إهانة، ومن ذلك الوقت عظمت هيبة لذريق عند المسلمين فصاروا ينادونه: سيدى القنبيطور.

وعندما عاد السيد إلى قشتالة يحمل الجزية للملك ألفونسو وجد نفسه متهماً من قبل رجال البلاط الحاسدين له، بأنه احتفظ لنفسه بجزء من الأموال والهدايا التي أرسل لجيبيها، فنفاه الملك من أرضه، وحدد له أجلاً للرحيل لا يتجاوز تسعة أيام.

وطبقاً للتقاليد المتبعة سار معه ألبار هانيث، ابن عمه وآخرون من أسرته وتابعيه. فترك السيد قرية بيبار مسقط رأسه، وذهب ليودع زوجته وبنتيه ومازالتا طفلتين، وكن لاجئات في دير كاردينيا، وتركهن هناك وحيدات ثم دعا الله أن يعيش حتى يزوج بنتيه، ويقضى بعض حياته مستمتعاً بسعادة الأسرة. وحانت نهاية الموعد، فكان على السيد أن يجترئ وداعه ليخرج من قشتالة سريعاً؛ وكان أكثر ما يشغله: كيف يستطيع في المنفى أن يبني العيش لنفسه ولن معه، وكانت أيام المنفى الأولى قاسية، وطريقه إلى النصر بطيئاً. ففكر في خداع مرابين يهوديين في برغش، رهنها صندوقين مملوءين رملاً، على أنها مملوئين ذهباً، وسار في طريقه فاستولى في البدء على حصن قسطلون والقصير على ضفاف نهر شلون. ثم باع إلى المسلمين أنفسهم الأرباح التي حصل عليها. وتوغل في الأرض الإسلامية وأصبحت كل المنطقة الممتدة من الترويل حتى سرقسطة تدفع له الجزية. ثم أرسل ألبار هانيث إلى قشتالة يحمل هدية إلى الملك ألفونسو، وتابع المنفى تقدمه متخطياً جبال موريا والأرض المجاورة لها، وكانت تحت حماية كونت برشلونة، فالتقيا في معركة انتصر فيها السيد، وأسر الكونت ثم تكرم عليه فعفا عنه بعد أن أمضى في السجن ثلاثة أيام.

أما النشيد الثاني فيدور حول زواج بنتي السيد.

من نفس جبال موريا اقتحم السيد شواطئ البحر الأبيض بين قسطلون ومريبطر، ثم واصل غارته حتى دانية، واستولى أخيراً على مدينة بلنسية. وأراد ملك أشبيلية المسلم أن يسترد المدينة فهزمه، ومن غنائم هذا النصر اختار السيد

مائة حصان، أرسلها مع ألبار هانيث هدية إلى الملك ألفونسو، ولكي يرجوه أن يسمح لدونيا خمينا أن تخرج من قشتالة وتذهب لتعيش معه في بلنسية. وأثناء احتلال السيد للمدينة أراد أن يكتسب عواطف المسيحيين فعين على المدينة مطراناً أدنيا ومحاربا يدعى دون خرونيمو.

وقد ذهب ألبار هانيث بالهدية إلى قشتالة، وحصل على إذن من الملك يسمح لزوجته السيد وبتيه بالذهاب إلى بلنسية، وعدن معه فاستقبلهن السيد في بهجه بالغة، ومن شرفات القصر أخذ يعرض عليهن امتداد المدينة التي استولى عليها، وثراء بسايتها. ولما حاول يوسف بن تاشفين ملك مراکش أن يسترد بلنسية هزمه السيد أيضا. ومن الغنائم الهائلة لهذه المعركة أرسل السيد مائتي حصان هدية أخرى إلى ألفونسو، وكان رسوله ألبار هانيث للمرة الثالثة. وقد أحدثت هدايا السيد الهائلة والمتكررة إلى الملك دوبا في قشتالة، وإعجابا عظيما بالبطل النقي، ولكنها في الوقت نفسه عمقت حسد الكونت غرسية أوردونيث، المهزوم في قبعة، وفي نفس الوقت أثارت نهم بعض أقرباء الكونت، وبخاصة أميرى كاربون، ففكروا في الزواج من بنتى السيد فاتح بلنسية لكي يصبحا من كبار الأغنياء. ورأى الملك أن هذا الزواج مما يشرف السيد، فاقترح على ألبار هانيث أن يحمل الفكرة إليه. وتلاقى الملك والسيد على ضفاف نهر تاجه، وهناك عفا الملك عن السيد، وألغى قرار النقي، ووافق السيد على زواج بنتيه من أميرى كاربون، ورغم أن الزهو الأسرى للأميرين كان يجرح مشاعره، لم يرد أن يرفض للملك طلبا، ثم عاد السيد مع الأميرين صهره إلى بلنسية، وفيها تم الزواج.

ويدور الشئيد الثالث عن الصراع بين السيد وصهره.

في المعركة التي جرت بين السيد وبو بكر ملك مراکش؛ أظهر أميراً

كاربون جينا كبيراً. وعندما انتصر السيد أحسن بما آل إليه أمره من عظمة وسؤدد، ولم يعد ذلك النقي الغلبان كما كان قبلاً؛ إنه الآن غنى وقوى وعجيف وفكر في أن يجعل المغرب كله يدفع له الجزية، بل وبدا مزهوا بصهره متناسيا جنهم، ولكنها أصبحت هدفاً لسخرية قاسية ممن حوهم؛ فلم يستطيعوا الصبر وفكروا في أن يتقوا من السيد في شخص بنتيه، فطلبوا إذنه بالذهاب إلى مدينتها كاريون مع زوجتيها، ولم يدر بخلد السيد أنها يضمران لبنتيه سوء فأذن لهما، وحملها الغالي من الهدايا، وأحسن وهو يودع بنتيه بشيء ما في أعماقه؛ هو اجس تحركت في خاطره تحدته بشيء قادم.

بدأ الأميران رحلتها، وعندما دخلا أرض قنشالة، في غابات كورس الكثيفة جلدا زوجتيها بقسوة، وتركاهما نصف ميتتين. وعندما علم السيد بهذا العمل الخسيس أرسل ألبار هانيث لكي يعود ببنتيه، وأرسل إلى الملك ألفونسو يطلب منه التحقيق والمحاكمة: «إن الملك هو الذي زوّج بنتي، وكل مامس شرفي هو من جانب سيدي» وتآلم الملك فدعا بلاطه في ظليظة، فذهب إليه الأميران مزهوين، وفي عصبة قوية من أقاربها، على رأسها الكونت غرسية أوردونيث، عدو السيد القديم، وكان هذا الكونت آحر من وصل إلى الاجتماع. وعندما افتتح مجلس البلاط عرض السيد ما لحق ببنتيه، طالباً من الأميرين أن يعيدا إليه مما أهداهما السيدين «تيشون» و«كولادا»، ثم «الدوطة» التي دفعها بنتاه. وأن يسترد شرفه منها في ساحة المبارزة. وعبثاً حاول الأميران الدفاع عن موقفها، محتقرين السيد وبنتيه، وأنه مجرد إنسان يحاول أن يصبح أميراً صغيراً، وبتاه ليستأ أهلاً لتكونا زوجتين للأميرين من كاريون. ورد السيد على الكونت غرسية يذكره بحسه إياه في قبرة. أما الأميران فلا يشرفه أن يرد عليهما، فتولى أقرباء السيد الرد نيابة عنه، وأظهروا ما اتصف به الأميران من خيانة وجبن وفي هذا الوقت يدخل إلى مجلس البلاط رسولان

يطلبان بنتي السيد زوجتين لأميرى نبرة وأرجون، حيث تصبحان ملكتين، ووافق الملك على هذا الزواج المشرف، ثم يعود الحديث إلى ما كان عليه، ويطلب السيد أن تم المباراة في أرضهما في وادي كارسون، وانتصر السيد على الأميرين، وأعلن خيانتها، وكان هذا الزواج الثاني أكثر شرفاً من الأول، لأن ملوك إسبانيا أصبحوا من سلالة البطل ابن بيار.



تلك هي أقسام الملحمة، وكلها تدور حول السيد ومغامراته وانتصاراته والسيد شخصية تاريخية، وهو في التاريخ يختلف عنه في الملحمة، وقيل أن نعرض له كما صورّه الشاعر، أود أن أقدم له صورة تاريخية، وكلا الصورتين تكمل الأخرى.

السيد في التاريخ

لا نعرف شيئاً كثيراً عن طفولة رودريجو دياث، والذي سيدخل التاريخ تحت اسم السيد القنبيطور، ويرجح أنه ولد قريباً من عام ١٠٤٥ في قرية بيبار على بعد تسعة كيلو مترات شمالى مدينة برغش، مكان مهجور في الهضبة القشتالية، تكتنفه طبيعة قاسية لا نظير لها في جلاها، والحياة في هذه البقاع قاسية على السكان الذين اعتادوا منذ حداثتهم أن يعيشوا عيشة معدومة اليسر، مليئة بمظاهر الحرمان. وينحدر والده ديجو لاينيث من أسرة قشتالية قديمة، من سلالة القاضي لاين كالبو، يعيش حياة مستورة منعزلاً في ضياعه الفقيرة، أما أمه، ولا نعرف اسمها، فكانت تنحدر من سلالة نبيلة أيضاً، فأبوها رودريجو ألبارث سيد كبير النفوذ، يمتلك إقطاعيات واسعة في وادى «دويره» وقد اشترك في ميعة شبابه مع ديجو لاينيث في حملات ضد مملكة نبرة الغرية لحساب ملك ليون، فرناندو الأول.

ويبدو أن والد السيد توفى عام ١٠٥٨، ولما يزل الابن غلاماً يافعاً، فضمه إليه شاحج، الابن الأكبر للملك فرناندو، وأشرف على تربيته وتثقيفه، ثم قلده السيف، وخلع عليه شارة الفروسية، وجعله في حماه، وصحبه معه في أول حملة حربية قام بها. ففي ربيع عام ١٠٦٣م، حاول راميرو الأول ملك أرجون، وعم الأمير شاحج، أن يستولى على مدينة جراس، وكانت في حوزة المقتدر بن هود ملك سرقسطة، فأرسل هذا إلى حليفه فرناندو الأول ملك قشتالة يطلب العون، فأمدّه بجيش يقوده الأمير شاحج، وبين صفوفه رودريجو دى بيبار، وقد انتصر المقتدر ومعه القشتاليون؛ وقتل في المعركة الملك راميرو، وهكذا نرى أن السيد شهر سلاحه أول ما شهره، وهو في صفوف

الجيش الإسلامي، أثناء مدافعتة الأندلسيين المسيحيين.

وعندما توفى فرناندو الأول ملك قشتالة وليون عام ١٠٦٥م. قسم مملكته بين أبنائه، على نحو تنقصه الحنكة السياسية، فكانت قشتالة من نصيب أكبر أبنائه شامجه - صديق السيد وحاميه - وكان للثاني ألفونسو السادس مملكة ليون، وللثالث غرسية مملكة جليقية، وأقطع ابنتيه أراكة وإلبيرة الأديرة الغنية. فادت هذه القسمة الجائرة إلى حرب طاحنة بين الأشقاء. كان شامجه ملك قشتالة يضطرم بغضاً لأنه، وهو أكبر إخوته، لم يضع يده على مملكة أبيه كلها، فحاول بدءاً أن ينتزع من ابني عمه شامجه ملك نبرة، وشامجه ملك أرجون، بعض المدن فأخفق. فانقلب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وغرسية، ونشبت بين الفريقين حرب ضروس على امتداد ثلاثة أعوام، خربت وديان ليون وقشتالة، وقد تمكن من أن يزيل أخاه ملك جليقية عن عرشه، ويعدّه تحوّل إلى ألفونسو السادس، والتقى الاثنان في معركة فاصلة في جليخيرة، قريبا من حصن كاربون دي لوس كوندس، وقد تفوّق ألفونسو في بدء المعركة، وأوشك أن يتصر، لكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بثمرات نصره، فعف عن مطاردة جيش شامجه الفار، وترك جنده يحتفلون بالنصر دون تحوّل، ووثق في كلمة أخيه من الاكتفاء بما حدث. وقد تدخل السيد في اللحظة الحاسمة، فنصح الملك شامجه بأن يجمع بقايا جيشه الممزق، وأن يعيد تنظيمه، ويستغل فرحة جند أخيه بالنصر، وانشغالهم بالغنائم، واستسلامهم إلى نوم مطمئن، ثم ينقض عليهم فجراً. فعمل الملك بنصيحة السيد، وتحقق له النصر، وقد أفنت الملك ألفونسو من الموت ولكنه وقع في الأسر، وأبق شامجه على حياته، وزج به في ظلمات دير قريب من برغش، إلى أن دبّرت أخته أراكة فراره، فالتجأ إلى ابن ذى النون صاحب طليطلة، وهكذا ضم شامجه ملك قشتالة ليون إلى

مملكته، وكافأ السيد على نصحه، فعينه فارساً له، أي حامل لوائه ، وقائد جيوشه.

لكن الأمور لم تجر على النحو الذي أراده شانجه، فقد دبرت أخته أراكة ثورة ضده، بمعاونة بدور أنسوريث، وهو شيخ كان يؤدب ألفونسو السادس، ولكى يواجه شانجه الموقف حاصر مركز الثورة في حصن سمورة بنفسه، وبذل المحاصرون جهداً كبيراً لفك الحصار، ثم تخيروا من بينهم فارساً شجاعاً هو يبيدو أدلفو لكى يخرج ويسوغل في محلة المحاصرين، وهكذا استطاع أن يفاجئ الملك، وأن يطعنه برمح فشق صدره، وأرداه قتيلاً في ٧ من أكتوبر عام ١٠٧٢، ففقد السيد بموته سيده وراعيه، ولقد حاول أن يلحق بالقتال، فانطلق في إثره، ولكنه احتمى منه بالمدينة بعد أن أغلق الأبواب بعده، وفي الحال ارتد الجيش المحاصر، وبادرت أراكة فأرسلت إلى ألفونسو في ظليظة لكى يعود سريعاً، ولحق حين عودته اعترافاً تاماً بحقوقه الملكية في ليون، ولكنه واجه صعاباً في قشتالة، وفي الأراضي التي كانت تابعة لمملكة نبرة، فقد استرطت لكى يلبى ألفونسو العرش أن يقسم في حفل رسمي أنه برىء من دم شانجه الثانى، فنزل عند إرادتهم على ما فيها من شطط، وتم ذلك آخر عام ١٠٧٢ م في كنيسة سانتا جاديا في برغش، وكانت اجتماعات القسم تجرى فيها عادة.

وقد أحجم أمراء قشتالة عن التقدم لتلقين الملك صيغة القسم، ولم يجروا على ذلك غير السيد، فارس الملك القليل، وجعل الملك ألفونسو يردد صيغة القسم المهين مرتين، ولم يغفر له الملك قط جرأته هذه ، وبعدها فقد لقبه كفارس ملكى، وأصبح مجرد تابع عادى كآلاف الرعايا، بينما أصبح بدرو أنسوريث المؤدب القديم للملك، وغرسية أوردونييث، الشاب القشتالى النبيل، ومن ألد خصوم السيد، أكثر المستشارين قرباً إلى الملك ألفونسو.

لكن الملك مالبت أن أظهر تقديره للسيد عندما بحث له عن زوجة من بين طبقة الأشراف، تحقيقاً لإحدى واجبات الملك الأساسية حيال تابعه، فاختار له فتاة من نبلاء أشتورية، هي **دونيا خمينا دياث**، ابنة ديجو رودريجيث، كونت مدينة أو بيدو، والحفيذة الصغرى لألفونسو الخامس ملك ليون، وابنة عم الملك ألفونسو السادس الجالس على العرش، وقد أهدي السيد خطيبته أراضى من أملاكه في قشتالة، وتحمل الهبة تاريخ ١٩ يسولية ١٠٧٤م، وهو التاريخ الذى تم فيه الزواج على ما يرجح، وكانت من السيد إذ ذاك قريباً من واحد وثلاثين عاماً. وما من شك أن الملك هدف بهذا الزواج إلى المصالحة بين طبقة الأشراف في كل من قشتالة وليون، حتى أنه جعل شاهدى العقد بدرو أنسورث، وغرسية أوردو نيث خصمى السيد، وتأكيذاً لهذا العمل توجه ألفونسو إلى مدينة أو بيدو حاجاً، وبها كندرائية سان سلفادور، أجل مكان دينى بعد كنيسة شنت يعقوب في جنيفية، ولم يصحب معه من كبار الشخصيات القشتالية التى حوله غير اثنين، مطران برغش والسيد. وعندما عاد الملك إلى برغش أول مايو ١٠٧٥ أصدر أمره بإعفاء أملاك السيد، ثم خلفائه من بعده، من أية ضرائب أو غرائم تجب حالياً، أو تفرض مستقبلاً.

في ذلك الوقت كانت مملكتنا طليطلة وإشبيلية الإسلاميتان تؤديان الجزية لمملكة قشتالة المسيحية بمقتضى معاهدة قديمة، وفى كل عام تفتد عليها سفارة من قشتالة أو ليون لتتلقى منها الجزية، وقد اختار ألفونسو السيد عام ١٠٧٩ ليرأس الوفد المتوجه إلى إشبيلية ليقبض الجزية من ملكها المعتمد بن عباد، ولقد وصل السيد في ظرف غير مناسب؛ فقد وجد المعتمد في حرب صريحة مع عميد الله بن زيرى ملك غرناطة، وكان بدوره يدفع الجزية لألفونسو ملك قشتالة، ويضم جيشه نسبة كبيرة من المسيحيين الأندلسيين،

لعل الملك القشتالي أرسلهم إليه ليقم توازناً بين الجيوش الإسلامية المتعادية في جنوب شبه الجزيرة ، وليحد من أطباع المعتمد ملك إشبيلية، وكان يرنو ببصره إلى ما حوله من إمارات صغيرة يريد أن يوسع بها رقعة مملكته، وكان على رأس الجنود القشتاليين الذي كانوا في خدمة ملك غرناطة الكونت غرسية أوردونييث، خصم السيد ومنافسه اللدود.

ولقد وجد السيد الفرصة مواتية ليلتق مع خصمه أوردونييث في معركة، فأرسل إلى ملك غرناطة يمجده ومن معه من أغنياء القشتاليين من الهجوم على مملكة إشبيلية لأن صاحبها مشمول بحماية ملك قشتالة، ولكن هؤلاء استهانة بجيش المعتمد، وبالسيد ومن معه من قوات صغيرة، ردواً على إنذار السيد بالهجوم فعلا على مملكة إشبيلية، وهكذا نشبت المعركة قريباً من مدينة قبرة، بين قوات الفريقين، وكل جيش منها يتكون من جنود مسلمين ومسيحيين، ولقد هُزِمَ جيش غرناطة، وانتصر جيش إشبيلية بفضل السيد والقلة التي معه، وأسروا كثيرين، بينهم عدد كبير من نبلاء المسيحيين، على رأسهم غرسية أوردونييث نفسه، وظلوا في الأسر ثلاثة أيام، أطلق السيد بعدها سراحهم، فعادوا إلى برغش أذلاء مقهورين، أما السيد فقد دخل إشبيلية منتصراً، وتلقى من المعتمد الجزية، وهدايا أخرى كثيرة، ثم عاد بعدها إلى برغش عاصمة قشتالة فوصلها في مايو عام ١٠٨٠م.

لم يقع إذلال غرسية أوردونييث من الملك موقع الرضا، كما أن انتصار السيد أثار الغيرة والحسد في نفوس كثيرة ، بين حاشية الملك ورجال البلاط، وبين أقارب السيد نفسه، وهكذا أتهم، بالحق أو الباطل، بأنه استولى لنفسه على جزء من الهدايا التي كان يجب أن يقدمها للإمبراطور، ولم يستطع الملك أن يصم أذنيه عن تحريض بطانته، ولم ينس له القسم المذلل الذي أجبره يوماً على

أن يقدمه بين يديه، ولكنه انتظر الفرصة المواتية، وسرعان ما جاءته. فبينما ألفونسو على الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة مشغولاً بمناوشة مملكة "طليطلة" عُيِّن إلى السيد وقد تحلف في برغش مريضاً أن فريقاً من المسلمين سبّحوا هجوماً موفقاً على حصن غرماج القشتالي على خط نهر دويره، واستولوا على غنائم كبيرة، فقام بهجوم مضاد دون أن يرجع إلى الملك، وعاد معه غنائم وأسرى كثيرون. فصورَ نبلاء قشتالة مسنك السيد على أنه خروج على طاعة الملك، وأذعن ألفونسو السادس لقولهم، وأبلغ السيد عام ١٨٠١ بأنه منفي من بلاده.



كان هذا الثني نقطة تحوّل هامة في حياة السيد، ومصدر أقاصيص وأساطير بعيدة عن الحقيقة، منها الملحمة التي هي موضع الترجمة والدراسة. والحكم بنفي النبلاء كان أمراً شائعاً في أوروبا في العصر الوسيط، وفي الأندلس بجانبه الإسلامي والمسيحي، على نحو مختلف بين الجانبين، فلم يكن ثمة نبلاء في الجانب الإسلامي، ولكننا نعرف أن الحكم الأول نفي جمهرة كبيرة من القرطبيين عقب فتنة الرض الشهيرة، وكان المنفى في الجانب المسيحي يحتفظ ببعض الحقوق التي لا يمكن تجريدته منها، فلا تصدر أراضيه إذا لم يكن قد اقترف جريمة تتعلق بالشرف، وله الحق في أن يصحب معه أقرباءه وجنوده وفرسانه، وهكذا سلك لذريق طريقه نحو شرق الأندلس، مطروداً من قشتالة، على رأس فرقة تضم ثلاثمائة فارس تقريباً، ليظفر بلقمة العيش في أرض غريبة على حد التعبير العرفي القديم، يقاتل بجماعته، أحياناً في حماية أمير مسلم ولحسابه، وأحياناً لحسابه الخاص.

اتجه أولاً إلى برشلونة حيث يحكم الأخوان الكونت رامون الثانى، والكونت بيرنجر الثانى، فلم يجد منها ترحيباً، ففضى إلى المقتدر بن هود ملك

سرقسطة، فوجد عنده من الترحيب ما لم يجد عند أميرى برشلونة، لكن المقتدر مات في نفس العام، أكتوبر ١٠٨١م، بعد أن قسم أملاكه بين ولديه، فكان نصيب المؤمن مدينة سرقسطة وما والاها وورث المنذر دانية وطرطوشة ولاردة، وما لبث الشقاق أن وقع بين الأخوين، فاستمر السيد في خدمة المؤمن الأخ الأكبر، وطلب الثاني العون من كونت برشلونة، ومن شاحجه راميريث ملك أرجون، وهكذا وجد السيد نفسه مضطراً إلى محاربة الأرجونيين والقطلونيين في آن واحد لحساب منك سرقسطة المسلم، ومن حين لآخر كان يقوم بالإغارة على أراضيها، ثم التقى الفريقان لمعركة فاصلة عند حصن المنارة على بعد ٢٠ كم من مدينة لاردة، ورزء هذا الخطر وسَّع المنذر دائرة تحالفه مع الأمراء المسيحيين، فاندوه كنهم بما بعينه من جيوش و ضربوا حصاراً قوياً حول السيد ومن معه، فأرسل هذا يطلب العون من المؤمن، فجاء بنفسه إليهم، وكان السيد يائس من النصر، فطلب من المؤمن ألا يغامر بالقتال، وأن يدفع الجزية لأخيه وحنفائه، ولكن المنذر رفض العرض مرهواً، فأحس السيد بأنه قد جرح في كبريائه، ولم يجد أمامه غير القتال، فافتحم المعركة على الرغم من قلة قواته، وكان النصر حليفه، فأسر كونت برشلونة، وظفر بغنائم هائلة، وبعد خمسة أيام ردَّ للكونت حريته، ثم دخل سرقسطة فاستقبل فيها استقبال الظافرين، وأغرقه المؤمن بالهدايا، وخلع عليه مراتب الشرف، وظفر بين جنود المؤمن بمكانة ونفوذ كبيرين.

بعد موت المقتدر بقليل تمرد حاكم روطة، حصن هام من أملاك بنى هود على ضفة نهر شلون، وبعده ٣٥ كم. من سرقسطة العاصمة، وطلب مساعدة ألفونسو، الذي وجد الفرصة سانحة ليرد على السيد وعلى المؤمن في نفس الوقت، فأرسل حملة كبيرة على رأسها أمير نبرة، وحاكم قشتالة، وفي أثناء ذلك توفي المظفر صاحب لاردة، وكان أخوه قد سجنه فيها، فأثر حاكم روطة أن

يعود إلى حظيرة المؤتمن، وأرسل إليه سرّاً بما نوى، وأنه سوف يغرر بأعدائه من القشتاليين، ومن ثم أخبر قادة الجيش القشتالي القادم لمساعدته، أنه يود أن يسلم لهم الحصن، وللملك ألفونسو شخصياً، وقد جاء الملك فعلاً، ولكنه كان يشك فيما يهدف إليه القائد، فترك كبار قادته يدخلون أولاً، فوقعوا في الفخ وقتلوا جميعاً، وهزّت المذبحة ألفونسو فعاد إلى برغرش حزيناً. ولما علم السيد بالكيده خشي أن يقحمه أعداؤه في هذه المشكلة، فسارع إلى قشتالة لتبرئة نفسه، وليقنع الملك بأنه لا صلة له إطلاقاً بمؤامرة حاكم روطنة. وحاول في نفس الوقت أن يعود فيصبح من تابعيه، فقابله ألفونسو بفتور، وأدرك السيد أن الملك ما زال يحقد عليه، فعاد إلى سرقسطة يقدم خدماته للملك المؤتمن من جديد.

خرج السيد القنبيطور مع المؤتمن، وأغاروا على أرض ملك أرجون، وانطلق رجالهم عبرها يدمرون ويخربون على امتداد خمسة أيام، عادوا بعدما عمليين بالأسرى والغنائم إلى حصن Monzon، دون أن يمرؤ الملك شالجه واهيريث على أن يتعرض لهم مقاوماً. كذلك قام السيد، لحساب المؤتمن، بإغارات كثيرة على لاردة مملكة أخيه المنذر، وعلى نحو خاص في منطقة مورلة الجبلية العالية، ذات الطرق الصعبة، والمداخل الوعرة، وأقن السيد على ما فيها من بيوت وحيوان وثروات، وحاصر مورلة نفسها، ولما ضاق الحال بالمنذر زار الملك شالجه، ليجدد معه الصداقة التي كانت قائمة بينهما، ويطلب عونه إزاء الخطر الذي يتعرض له، وعقدوا محالفة للدفاع عن أراضيها، ثم جمعاً جيشيها وعسكراً على ضفاف نهر إيره. وأرسل ملك أرجون إلى السيد يتوعده، وينذره بأن يخرج سريعاً من أرض الحلب، فسخر منه السيد قائلاً: إذا كان ملك أرجون يطلب الحماية ليعود بسلام عبر الأرض التي نسيطر عليها، فسوف أتولى حراسته مسروراً. وأقدم له، إذا رغب، مائة من فرسان يرافقونه

في رحلته، فغضب الملك شانجه من هذا الرد، وبدأت المعركة، فالتقى الجيشان في ١٤ أغسطس ١٠٨٤، وامتد القتال لساعات وفي النهاية هرب ملك أرجون وحليفه المنذر، ولاحقهما السيد لمسافة طويلة، وأسر منهم ألفين، بينهم عدد من كبار رجال البلاط، ولكنه أطلق سراحهم بعد ذلك ما عدا ستة عشر من كبار القواد والشخصيات حملهم معه، وكان بينهم مطران روطه، وشقيق الملك شانجه، واستولى على غنائم وفيرة، وعاد بذلك كله إلى سرقسطة، فاستقبله المؤتمن مع أبنائه وكبار وزرائه، وجمع غفير من سكان العاصمة ومحولها رجالاً ونساء، وخرج الناس إلى ما بعد المدينة بأربعة أميال في انتظاره، وقد أطلق سراح الستة عشر أسيراً بعد ذلك في ظروف لا يحفظها لنا التاريخ. وظل السيد في سرقسطة إلى أن توفي المؤتمن في عام ١٠٨٥، فانتقل إلى خدمة ابنه و خليفته أحمد المستعين؛ ولكن تعوزنا التفاصيل عن الحملات التي قام بها ابتداء من عام ١٠٨٥ حتى ١٠٨٨م، ويبدو أن شهرة ألفونسو وقد استطاع أن يستولى على طليطة في ٦ مايو ١٠٨٥، حجبت شهرة السيد تماماً، لأن هذا السقوط كان أهم حدث في التاريخ الأندلسي في العصر الوسيط، فأحدث دوياً هائلاً، وأدى إلى نتائج خطيرة، في الجانبين الإسلامي والمسيحي على السواء.



وفي بلنسية قام حفيد صغير للمنصور بن أبي عامر، يُدعى عبد العزيز ويلقب نفسه بالمنصور، بتأسيس إمارة مستقلة عام ٥٤١١ - ١٠٢١م حكمها على امتداد أربعين عاماً، وأورثها من بعده ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر؛ في يناير ١٠٦٦م. ولكن عبد الملك كان ضعيفاً، فخلعه صهره المأمون بن بجي بن إسماعيل بن ذي النون صاحب طليطة، بعد أن

تعالاً مع أبي بكر بن عبد العزيز وزير المظفر الأول، وضُمَّت بلنسية إلى مملكة طليطلة عام ١٠٦٥؛ وكافأ المأمون أبا بكر فعيَّنه حاكماً عليها، تعويضاً له عن تأييده. وعندما توفى المأمون في عام ١٠٧٤، وتولى مكانه حفيده القادر، وكان يتسم بالعجز البالغ، أعلن أبو بكر بن عبد العزيز استقلال بلنسية، وطلب حماية ألفونسو السادس ملك قشتالة، مقابل جزية سنوية يدفعها له. لكن ألفونسو لم يكن يتردد في أن يبيع حلفاءه ودوهم إذا وجد نفسه محتاجاً إلى المال، وهكذا قرر خلال عام ١٠٧٦ أن يبيع بلنسية إلى المقتدر أمير سرقسطة بعشرة آلاف قطعة من الذهب، وتحرك بجيشه نحوها ليحررها من أبي بكر ويسلمها للمقتدر، وعندما أحس ابن عبد العزيز أنه عاجز عن الدفاع عنها؛ خرج بنفسه وحيداً، بلا حرس ولا جيش ولا سلاح للقاء ألفونسو، وعرف كيف يكون بليغاً ومقتنعاً، وأن يكون صدى بلاغته أعلى أثراً من رنين الذهب وعدّه، فجعل ألفونسو يتخلى عن مشروعه، وينقض اتفاه مع المقتدر، ويبقى على بلنسية حاكماً.

وعاد ألفونسو فباع بلنسية من جديد، باعها في هذه المرة للقادر بن ذي النون ملك طليطلة، بزعم أنه ساعده في حروبه مع أعدائه، وكان القادر شحيحاً على ما يملك من ثروات طائلة، ورعاياه مفلسون جائعون أرهقتهم مطالب الجزية والضرائب والحصار، فطمع ألفونسو في ثمن من نسوع آخر؛ لا يكلف القادر شيئاً، ويكلفه كل شيء، أن يتنازل له عن طليطلة، مدينة الملوك المتكبرة، وعاصمة القوط العتيقة، وكان أصلاً يخطط للاستيلاء عليها، وربما دس على القادر من يشير عليه بهذا الرأي، فعرض القادر عليه أن يتخلى له عن طليطلة، مقابل أن يساعده في الاستيلاء على بلنسية، غير أن ذلك وحده لم يكن كافياً، كان لابد أن يصير ألفونسو سيد المدينة والقباض على زمامها فعلاً، وهكذا ضرب عليها الحصار في نهاية صيف ١٠٨٤م، وأقام

مقر قيادته أمام المدينة، في القصر الرائع الذي كان المأمون قد بناه، وعيشا حاول أهل طليطلة طلب الغوث من ملوك المسلمين في شبه الجزيرة، فقد ظن هؤلاء أن المدينة قد سقطت، وهم في جملتهم كانوا يؤدون الجزية لملك قشتالة، وفي ٢ من مايو سنة ١٠٨٥م، اجتاز وفد من أشرافهم قنطرة نهر تاجه؛ يسألون الفونسو شروطه، ويطلبون الضمانات الكافية لتأمين أهل طليطلة المسلمين، وبعد ثلاثة أيام دخل الفونسو المدينة، وما لبث أن تنكر لكل الشروط التي عاهد المسلمين عليها^(١).

وبعد أن استولى الفونسو على طليطلة أخذ في تمكين القادر من استرداد بلنسية، فباسمه يستطيع أن يصبح الحاكم الفعلي على شرق الأندلس كله فخرج القادر قاصداً بلنسية في آله وصحبه ومجوهراته، وأعرضت عنه كل القلاع الإسلامية التي كان يحكمها ومزبها في طريقه بغضا واحتقاراً، وأوصلت أبوابها دونه، ما عدا قلعة قونقة، فقد رحب به صاحبها ابن الفرج ونزل القادر عنده حتى يستجلى الأمر، وبعث بابن الفرج إلى بلنسية، ليدخل حاكمها عثمان ابن عبد العزيز، فوجد الرأي فيها موزعاً، جماعة تؤثر أن تنضوى بلنسية تحت حماية المستعين ملك سرقطة، وأخرى تميل إلى القادر، وأصبحت المدينة نهياً للفرقة والفوضى، فعاد ابن الفرج إلى القادر

(١) مرجز هذه الشروط: المحافظة على حياة مسلمي طليطلة وحياة نسائهم وأطفالهم، وألا يلحقهم ضرر في أملاكهم، وأن يسمح لمن يريد أن يخرج بالفرج، ومن يريد أن يبقى بالبقاء، والذين يبقون لا يطلب منهم أكثر من دفع ضريبة الرأس لهم ولأسرهم، وكل مهاجر يمكنه أن يعود في الحال ويستعيد أملاكه مهما عظمت قيمتها، وأن يبقى جلعهم الكبير لهم، وأن تكفل لهم حرية الشعائر الدينية. وكتاب الاكتفاء لأبن الكردوبوس هو للصدر الوحيد الذي أورد هذه الشروط، وقد نشر دوزي صفحات منه في كتابه عن بني عباد، الجزء الثاني، ص ١٨، ١٩.

ونشر المعهد المصري في مدريد هذه القطعة، مع قطعة من نص آخر لابن الشباط، بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي عام ١٩٧١.

يستحثه على انتهاب الفرصة. فسار القادر إلى بلنسية في حراسة سرية قوية من الجنود المسيحيين، بقيادة ألبار هانبيث، فلما وصل ركبته إلى مشارف المدينة تشاور أهلها في الأمر، ورأوا، حقناً للدماء وجمعاً للكلمة، أن يقبلوه باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل، وأعلنوا خلع عثمان بن عبد العزيز، فدخلها القادر بين مظاهر حافلة، لم تكن ترحيباً بقدر ما كانت خوفاً من الجند الذين حولهم، يكسوهم الحديد، وتلمع سيوفهم تحت أشعة الشمس، وتسلم القصر من القاضي ابن لبون، ونزل فرسانه في بيوت المدينة، واحتل ألبار هانبيث وجنده المسيحيون ضاحية الرصافة، وكان ذلك في شهر فبراير من عام ١٠٨٦م.

وهكذا استولى القادر على بلنسية، وقامت دولة بني ذي النون مرة أخرى في شرق الأندلس، دولة ضعيفة تدين بوجودها لملك قشتالة، وتعيش في حماية الجند المسيحيين. وما لبث القادر الضعيف الخانع أن تحول إلى طاغية، وثقلت وطأة القشتاليين على الناس، وأرهقوهم بمؤونهم ومغارمهم، وتكلف يوماً ما قيمته ستائة قطعة من الذهب، وجار على المدينة بالضرائب الفادحة، وتوصل إليه السكان أن يتخلص من هؤلاء الجند، لأنهم سيكونون أوفياء له من غير سلاح، فلم يثق في رعاياه، ولم تعد الضرائب كافية لمواجهة نفقات الجنود المسيحيين ورواتبهم، ففرض مغارم باهظة على كبار الأغنياء من المسلمين ومن اليهود، وفقد الناس ثقتهم في المستقبل، وأخذوا يهاجرون جماعات، وفقدت الأرض قيمتها، ولم يُقبل أحد على شرائها، وساءت الحالة الاقتصادية. وعندما تأخرت رواتب الجند سجن قائلهم ألبار هانبيث القادر حتى يدفع لهم ما تبقى، فعرض عليهم أن يستقروا في مملكة بلنسية، وأن يقطعهم عوض رواتبهم ضياعاً واسعة، فقبلوا عرضه، واستولوا على أرضه، واستخدموا الرقيق في زرعها، وكونوا منها ومن الإغارة على المقاطعات التي حولها ثروات هائلة وتضخم عددهم ونمت قوتهم،

وانضمت إليهم جماهير غفيرة من أراذل الناس، والمخرومين والأرقاء والعاطلين، والهاربين من العدالة؛ والمرتدين عن الإسلام، وكونوا عصابات مرعبة، نالت شهرة مخزنة، وراحت تعيث في الأرض فساداً، فكانوا يمثلون بالرجال، وينتهكون الأعراض، ووصل بهم الأمر أن يبيعوا الأمير المسلم برغيف خبز، أو كأس من النبيذ، أو رطل من السمك، ومن لم يستطيع أن يفدى نفسه، أو لم يقبل، قطعوا لسانه، أو فقأوا عينيه، أو قدموه طلعماً للكلاب.



وخلال ذلك كانت تجرى في جنوب شبه الجزيرة أحداث ذات أهمية قصوى، فقد عبر المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، في أغسطس ١٠٨٦ لرد عادية مسيحي الشمال بعد استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة، فأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية لدفع هذا السيل المتدفق من جند المسلمين، وغادر ألبار هانييث وجنده مدينة بلنسية، وقُدِّر للجيوش الإسلامية أن تنتصر على الجيوش المسيحية في معركة الزلاقة الشهيرة، في أكتوبر ١٠٨٦م، وقد سرَّ أهل بلنسية لرحيل القشتاليين عنهم، وتنفسوا الصعداء لمزعة ألفونسو، وسارع القادر، كبقية ملوك الطوائف المسلمين يلتمس صداقة أمير المرابطين، ولكن هذا كان في شغل عن شرق الأندلس، وطمع جيران القادر في مملكته، فكان المنذر صاحب لاردة يتحين الفرصة للاستيلاء على بلنسية، فسار إليها ومعه سرية من مرتزقة المسيحيين القطلونيين، وضرب الحصار حولها عام ١٠٨٨م، وكان له داخلها أنصار يؤيدونه، فاستولى الذعر على القادر، وهم بتسليم المدينة، لولا أن ابن طاهر صاحب مدينة مرسية السابق نصحه بالترث، وشجعه على الصمود. وأرسل القادر إلى ألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه، وإلى المستعين صاحب

سرقسطة، وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية، ويشعر بالأسى لفشل محاولة قام بها أبوه من قبل، وكان السيد القنبيطور لا يفتأ يبحث المستعين على تحقيق هذا الهدف، فلما تلقى صريخ القادر، وجد أمامه الفرصة سانحة، فهير إليه في بعض قواته، يريد إنجاده ظاهراً، وبضمير الاستيلاء على المدينة باطناً، ولم يسر إليه وحده وإنما صحبه جيش آخر يقوده صديق المستعين وحليفه، وصديق أبيه المؤمن، وجده المقتدر من قبل، وكان هذا القائد هو السيد القنبيطور.

وثمة رواية خلاصتها أن المستعين والسيد عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية واجتياحها، على أن تكون الغنائم كلها من نصيب السيد وجنوده، وأن تصبح المدينة للمستعين، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن المستعين سحب السيد في تحركه نحو بلنسية، بحجة الاستجابة لصريخ القادر، دون أن يفضى إليه بنيتة في الاستيلاء على المدينة، وقدم إليه أموالاً طائلة كى يحشد القوات اللازمة. فتولى السيد جمع الجنود، واثالوا عليه من كل جانب للعمل تحت رايته، مسلمين ومسيحيين، فاجتمع له منهم، فيما يقول ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية، ثلاثة آلاف فارس، وأربعة آلاف راجل، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر، ولم يكن جيش المستعين يتجاوز أربعمائة من الفرسان، وعدداً من الرجال لا تشير إليه كتب التاريخ.

وعندما علم المنذر صاحب لاردة، وشقيق المستعين، بما اعترمه أخوه والسيد، ووجد أنه دون خصومه قوة وعدد جيش، فك الحصار الذى ضربه على بلنسية، وأرسل إلى القادر يعرض عليه صداقته، والدخول معه في حلف مقابل أن يصمد وألا يسلم المدينة للمستعين، فاستجاب له رغم إدراكه بأن المنذر ليس أقل طعماً في مملكته من أخيه المستعين.

ولم يتأخر الحلفاء في الوصول إلى بلنسية، ومع أن القادر كان يجهل الاتفاق الذي بين المستعين والسيد، إلا أنه كان يشك في نوايا الأول منها، فخرج لا استقبالها كمرحبين جاء لعونه، وشكر لها دلائل الصداقة التي برهنا عليها، والمساعدة التي يقدمانها له، ودعاهما إلى النزول بالقصر الكبير في المدينة الجديدة. وفي نفس الوقت عمل على التفرقة بين الحليفين فاستمال السيد إلى جانبه، بالرشاوى الكثيرة تأخذ شكل هدايا متعددة وغالية. وعندما صرح المستعين السيد بأن ينفذ ما اتفقا عليه تنكر لوعده، بحجة أن القادر يدفع الجزية للملك قشتالة، فهو تابع له وفي حمايته، والهجوم على بلنسية يعنى إعلان الحرب على الملك ألفونسو؛ وهو لا يفكر في انتزاع المدينة من القادر إلا إذا كان المستعين على استعداد ليعلم الحرب على ملك قشتالة، وكان السيد يدرك سلفاً، وعلى نحو مؤكد، أن ملك سرقسطة على قدر من التبصر والحيلة، يحول بينه وبين أن يرمى بنفسه بين ذراعى جيش الإمبراطور القوى، لقد تهاوت آمال المستعين، فعاد إلى سرقسطة مسرعاً، وترك في بلنسية واحداً من قواده مع مجموعة من الفرسان، ليكونوا في خدمة القادر ظاهراً، وليحتلوا المدينة إذا ما واتتهم الفرصة من جديد.

في مثل هذه الظروف بدأ السيد يستقل بنفسه، ويعمل لحسابه، ويراعى الجميع، يبيع العدو والصديق على السواء، ومن ثم فكر في أن تكون بلنسية له، أو أن يكون فيها صاحب النفوذ الأول على الأقل. ولتحقيق هذا الغرض نصح القادر سراً، بعد أن استولى على هداياه، أو ارتشى به إذا شئنا الدقة في التعبير، ألا يسلم المدينة لأحد، وأنه سيكون إلى يدافع عنه ضد الجميع، ووعده المختار صاحب لاردة بأنه سيعاونه على تحقيق بغيته في الوقت المناسب، وأوهم المستعين، أخا المنذر، بأنه سينزع له بلنسية إذا وافق

ألفونسو ملك قشتالة على ذلك، وأرسل إلى ألفونسو أنه رعيته وتابعه، وأنه سيقا تل لحسابه، وأن الحرب التي يقوم بها تعود بالخير على قشتالة لأنها تضعف أمر المسلمين، وأن هؤلاء الفرسان الذين يقودهم، دون أن يكلفوا الملك شيئاً، هم تحت تصرف الملك وطوع أمره، وأنه يأمل أن يقدم له مدينة بلنسية، وأن يضع شرق الأندلس كله تحت نفوذه. ولم يقف السيد مكتوف اليدين فبدأ يهاجم القلاع التي على الحدود وكان رده عند كل تساؤل: «إنه يصنع كل ذلك ليربح لقمة العيش»!

ومن المؤكد أن السيد توجه إلى بلاط قشتالة؛ وأن الملك ألفونسو أحسن استقباله؛ وعنى بأمره كثيراً، وتنازل له عن بعض الحصون، وسلمه براءة يقرر فيها أن جميع الأراضي والقلاع التي يستولى عليها تصبح ملكاً خاصاً له، ثم لأولاده وسائر عقبه من بعده. وقفل السيد عائداً إلى بلنسية، وتحت إمرته سبعة آلاف مقاتل.

وعندما علم المستعین بالاتفاق بين ألفونسو والسيد، فصم ما بينهما من مخالفة، وانتهز برنجير كونت برشلونة، وخصم السيد العنيف، الفرصة فسارع إلى عقد تحالف مع المستعین، لمواجهة خطر السيد، وقد أصبح بما تحت إمرته من جيوش مرتزقة يهدد الجميع، وسار معه إلى بلنسية لضرب الحصار عليها من جديد، وعسكرا في جباله وليريا، وعزما على إقامة حصن ثالث في البحيرة للحيلولة دون الخروج من بلنسية أو الدخول إليها. وعندما علم برنجير أن السيد قد اقترب من بلنسية، ليفك الحصار الذي ضربه حولها، تغشاه الخوف، وتعباً للرحيل قبل أن يصل جيش السيد، ولو أن الجنود لم يشاركوا برنجير خوفاً، فأخذوا يسبون السيد، ويهددونه بالأسر أو الموت، وتحمل القنيطور كل إهاناتهم، لأنه كان يعرف أن الكونت برنجير هو عم الملك

ألفونسو. وأخذ الرسل يتوافدون بين الكونت والسيد، وفهم الكونت أن عليه أن يرحل، فأثر السلامة وعاد إلى برشلونة.

عسكر السيد أخيراً في الكدية، ضاحية بلنسية الشمالية، ويفصلها عن المدينة نهر «طوريا» بعد أن مرّ في طريقه «بمريبتر» وأرغم حاكمها ابن لبون على أن يؤدي له جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف دينار. وفي الحال أغرقه القادر بالهدايا من تحف وأموال، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته، ويؤدي له جزية مقدارها ألف دينار أسبوعياً، ويقال إنها كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام، مقابل أن يُدخل له في طاعته كل قواد الحصون الثائرين، وأن يرغمهم على دفع الضرائب له، كما كانوا يصنعون من قبل وأن يظل معسكراً في الكدية، وأن يحمل إلى بلنسية كل الغنائم التي يحصل عليها من إغارته لتباع فيها.

وفي الحال استجاب له قواد الحصون، فلما اطمأن إلى إذعانهم أغار على جبال ألبونت، حيث يحكم جناح الدولة عبد الله بن قاسم، وعات في أراضيه فساداً ونهباً وسرقة، وأرغمه على أن يدفع جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار. وهكذا أصبح في قبضة السيد أمراء بلنسية، والسهلة وألبونت، ومريبتر، وعلى نحو أدق أصبح كل جنوب شرق الأندلس تحت حمايته يدفع له الجزية خانعاً!



بعد هزيمة الزلاقة خاف ألفونسو من تقدم المرابطين نحو طليطلة عاصمة ملكه، فدعم حصن أليبط، ويقع في الطريق إليها، بقوة تبلغ ألف فارس واثني عشر ألف مقاتل، غير من معهم من النساء والأطفال، وكانت تغير على نواحي

لورقة عقاباً للمعتمد، لأنه تزعم دعوة المرابطين إلى الأندلس وامتدت غاراتها إلى المرية ومرسية أيضاً. حينئذ فكر المعتمد في الاستغاثة بأمر المرابطين مرة ثانية، وفعلاً جاء ابن تاشفين إلى الحصن وضرب عليه الحصار، وفي صحبته عدد من الملوك والأمراء المسلمين. فكتب ألفونسو إلى السيد يستنجد به، ويدعوه إلى أن يتقدم سريعاً لمعاونة المحاصرين في ألييط، فأبدى السيد استعداداه، ورجا الملك أن يخبره بالوقت الذي يتحرك فيه. ثم ترك معسكره في ركونة Requena واتجه إلى شاطبة ليكون قريباً من مسرح الأحداث، وعندها أدركه رسول الملك يحمل إليه أمراً بأن ينتظر في بينا Villena، لأن الملك سيمر بها في طريقه إلى المعركة، وأخبره بأن الجيش الذي جمعه الملك كبير يضم ثمانية عشر ألفاً من المقاتلين.

لكن السيد عسكر في أونتينييت Onteniente ليؤمن تموين قواته، فهي تقع في واد ريان، وفيه الماء، غني بالخيرات، من شعير وقمح وفاكهة وزيت وأغنام، وترك في كل من بينا وجنجاله طليعة تحبره بوصول الملك. غير أن ألفونسو سلك طريقاً آخر، فلما عرف السيد الخبر ترك هذين مسرعاً، حيث يوجد، مع قلة من رجاله، ليلحق بالملك في مولينا، تاركاً وراءه معظم الجيش، ولكنه وصل متأخراً بعد أن انتهت المعركة، لأن أمير المرابطين ومن معه رفعوا الحصار بلا قتال. وعاد ألفونسو إلى طليلطة في ٢٥ نوفمبر ١٠٨٩، وفيما بعد أمر بإخلاء الحصن لأن الدفاع عنه كان مرهقاً. وأعطى وصول السيد إلى المعركة متأخراً الفرصة خصومه لكي يهمسوا في أذن الملك بأن القنيطور وصل المعركة متأخراً عن قصد، ليكن المسلمين من الجيش القشتالي فيمزقونه شر ممزق، ومن ثم أصدر الملك ألفونسو أمراً بمصادرة كل الضياع والحصون التي منحها للسيد من قبل، والأموال التي له، وسجن زوجته وأطفاله.

وما إن عرف القنبيطور الاتهام والعقاب حتى أرسل واحداً من فرسانه إلى الملك يبرئ نفسه مما اتهم به، ويقدم البراهين على براءته، ثم دعا خصومه إلى معركة قضائية أمام بلاط الملك، وقد رفض ألفونسو عرضه. ولكنه خفف من العقوبات التي أنزلها به، فأطلق سراح زوجته دونيا خمينا، وأطفاله، وسمح لهم بمغادرة قشتالة وأن يلحقوا بأبيهم.

وجد القنبيطور نفسه وحيداً، تحلى عنه ألفونسو، وانفصل عن المستعنين، وعاط بالأعداء من كل جانب، لا يتبع أحداً؛ وليس لجنوده ما يطعمونه إلا ما يربحه مغيراً. ونهأ إلى الغنائم، تشغل فكره، ترك ألس Eleche في مطلع العام الجديد ١٠٩٠، واستقر في قلعة بولب قريباً من القنت، بعد أن جاءت الأخبار أن فيها جواهر ثمينة وأموالاً مخبأة، فحاصر الحصن، وأرغم حاميته على التسليم، وغنم كل ما وجد فيه، وأتى عليه أرضاً، ثم اتجه إلى أوربولة قريباً من شاطبة، فلم يبق في طريقه على جدار قائم. ومن هناك مضى إلى كورة طرطوشة فاستولى على مرابط Miravet، وفيها أرسل إليه المنذر صاحب لاردة وطرطوشة يطلب محافته. ولما علم القادر ملك بنسبة هذه المحاولة خشى أن تكون على حسابه، فأرسل المزيد من الهدايا إلى السيد ليشتري رضاه، ومثله هذا كل صغار القادة والأمراء الذين حوله. بينما بدأ المستعنين، ثم المنذر بعد أن تحالف السيد مع القادر، يكون حلفاء جديداً ضد القنبيطور يجمع بينه وبين أخيه وشانجه راميرث ملك أرجون، وبرنجير كونت برشلونة، وإرمنجول كونت أورجل، فلم يستجب له منهم إلا كونت برشلونة، وكان يحمي على السيد كثيراً منذ أرغمه على الرحيل عن بنسبة وفك الحصار، فتحرك بجيشه من برشلونة، وذهب إلى دروقة Doroca ليزور ملك سرقسطة المقيم هناك، وقدم له المستعنين مقابل عونه أموالاً طائلة، ثم ذهب

الاثنتان لمقابلة ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان ساعتها نازلا في أوروون Oron يطلبان عونه ضد السيد، وتحمس برنجير فأكد أنه سيطرده السيد من أراضي طرطوشة، وأن السبب الذي حال دون ذلك في الماضي أنه كان رعية الإمبراطور - اللقب الذي يطلق على ألفونسو - وشاركه جنده الذين كانوا معه في السخرية من القنيطور، وشاركهم الرأي أعداء السيد الذين كانوا في بلاط الملك، غير أن ألفونسو لم يثق في قدرتها، فلم يعدهما بشيء، وعادا من رحلتها دون أن يمدهما بجندى واحد.

وأدرك السيد أنه غير قادر على مواجهة خصومة مجتمعين، فرحل من مرابط وعسكر في غابات تيار، واد تحيط به الجبال العالية، والدخول إليه عسير، وعمل على التفرقة بين المتحالفين، وكان المستعنين أول من وقع في الفخ، فقد أدرك بعد أن رُدَّهما ألفونسو أن في المسألة السلامة، فبعث إلى السيد يطلب وده، وتجاوز المسألة ليخون حليفه، فأسرَّ إلى السيد أن الكونت برنجير يتبها للقاتل. وكان كونت برشلونة يعتقد أن القنيطور يمكن أن يرحل تحت ضغط التهديد والتحدى، فكتب إليه : « تزعم أنني ورجالي نساء، وإذا ساعدنا الله فسوف نبرهن لك سريعا إلى أى مدى أنت وقعت في الفخ... نحن نعرف أن أهتك هي الجبال والغربان والصقور، وباختصار كل الطيور، وأن ثقتك في عرّافيك أكثر من ثقتك في عون القوى القادر. أما أنا ورجالي فعلى العكس منك، نؤمن بالله واحد، وأن هذا الإله سوف يشار لنا منك، ويلقى بك بين أيدينا. غداً مع أول شعاع للشمس سترانا عندك، وإذا تركت الجبل لتجئ إلينا، فستعرف قدر نفسك في السهل. إننا نتنظر لذريق الملقب بالهارب والقنيطور، وإذا لم تجئ فسوف نعتبرك ختاراً... لن ندعك تفلت قبل أن تقع في قبضتنا جثة هامة، أو حياً أسيراً، وسوف نعاملك بالطريقة

التي تحب أن تعاملك بها، فألى المبارزة... إن الله سوف ينتقم للكنايس التي دُستها، وللأديرة التي هدمتها».

وقرأ السيد الرسالة في معسكره، بين جنوده، وفوراً رد عليه: «... لقد أهنتك، وإليك الأسباب: كنت مع المستعين في قلعة أيوب وقلت له: إنني لم أضع قدمي فوق أرضه خشية منك، ونفس الشيء قاله أتباعك للملك ألفونسو، في حضور فرسان قشتاليين، ثم قلته أنت أخيراً للملك ألفونسو بمحضر المستعين، وأنه لن يفوتك أن تطردني من بلاد الحاجب المنذر، وأنتى لا أجرؤ على انتظارك. وفي لحظة أخرى تعللت بأنك لاتريد أن تحارب ضد أحد رعايا الملك. لأجل هذا كله أهنتك ووجهت إليك السباب! طيب... تعال إني، لم يبق لك حجة لكي لا تهاجمني، لقد وعدك المنذر بمبلغ ضخيم، ووعدته أنت بطردى من أراضيه، احفظ كلمتك!، تعال لتقابلتي إذا استطعت، إنني في سهل، أعظم السهول اتساعاً، وعلى أي حال عندما ألقاك سأعطيك راتبك كالعادة!»!

بلغ الغيظ والحق مبلغه من برنجير وجنده من القطلان، فأقسموا على الانتقام، وانتهبوا فرصة ظلام الليل، واحتلوا دون أن يحس بهم أحد الجبال التي تحيط بمعسكر السيد، ثم انقضوا عليه فجأة مع انبلاج الفجر، وكان الهجوم مفاجأة للسيد وجنوده، حتى أن الوقت لم يتسع لهم لإعداد السلاح، فاستعر القتيطور غضباً وحنقاً وغيظاً، ولم يفقد لحظة واحدة فانقض على أول جماعة لقيها من الأعداء، وقاتل مستميتاً، وسقط عن جواده، وجرح في ساقه، لكن أتباعه واصلوا القتال صامدين إلى أن أصابوا النصر. وبعده انقضوا على معسكر الأعداء فنهبوا ما فيه من ملابس وجواهر وتحف وخيام، وغنموا ما لهم من خيل وسلاح وبنغال، وأسروا الكونت برنجير نفسه، وخمسة آلاف

من أتباعه، واقتيد برنجير إلى خيمة السيد، وتقدم إليه كسير النفس يطلب العفو منه، لكن السيد عامله بقسوة زائدة، فلم يسمح له أن يجلس إلى جواره في خيمته، وأمر جنوده أن يسحبوه خارجها، وأن يجرسوه جيداً، غير أنه أمر بأن يقدم له، وللأسرى الآخرين، ما يكفيهم من الطعام، ثم قبل منه الفدية التي عرضها عليه، ولواحد من فرسانه يعزه، هو جيروود المان وتبلغ قيمتها أربعة وعشرين ألف مارك من الذهب البلنسي، أما بقية الأسرى فقد أطلق سراحهم مقابل وعد منهم بأن يدفعوا الفدية مستقبلاً. فلما عادوا إلى مدنهم جمعوا من الأموال ما استطاعوا، ولم يكن ما جمعه كافيًا، فعرضوا عوضاً عنه آباءهم وأبناءهم وأقاربهم، ولكن السيد وقد أحس تعاستهم كان كريماً معهم، فأبرأ ذمتهم من باقي الفدية. بقى لن نشير إلى أن شاعر الملحمة قد أبدع وهو يقدم لنا الموقف الدرامي الذي جرى بين السيد والكونت برنجير، بعد أسر وقدم له الطعام، وأعطانا تفصيلات وافية، وحواراً نابضاً بالحياة^(١).



تأثر كونت برشلونة إزاء عفو السيد، فعرض عليه أن يكون صديقه وحليفه، غير أن السيد وكان يطوى جوانحه على بغض شديد للكونت رفض العرض، لكنه نزل عند نصيحة جنده والخاصهم، ووافق على أن يتحالف مع خصمه القديم، ولما عرف المنذر صاحب لاردة هزيمة كونت برشلونة مات كمدًا، تاركاً وراءه طفلاً في سن طرية، فاشتري له أوصياؤه رضى السيد وحمايته بجزية سنوية قدرها ٥٠ ألف دينار.

وإلى جانب ما ذكرنا من جزية كان يتلقى من بنى رزين سادة شتتمرية

(١) انظر القصائد من رقم ٥٦ إلى ٦٢.

الشرق عشرة آلاف دينار في كل عام ومن عبد الله بن قاسم صاحب البونت عشرة آلاف دينار، ومن ابن ليون حاكم مريبطر ثمانية آلاف، ومن قلعة شيبوب ستة آلاف، ومن الشارقة ثلاثة آلاف، ومثلها من حصن المنارة، وألف دينار من ليريا. أما أعلى جزية فكانت تدفعها مدينة بلنسية وقيمتها اثنان وخمسون ألف دينار سنوياً، فضلاً عما يساوي اثنين في المائة من قيمتها، أي خمسة آلاف ومائتي دينار، تدفع لمطران بلنسية، القائم على شؤون المستعربين، وتسميه المراجع العربية سعيد المطران.

وبينا كان السيد يحاصر ليريا لأنها امتنعت عن دفع الجزية، تلقى رسالة من ملكة قشتالة تطلب إليه أن يلحق بالحملة التي يقودها الملك ألفونسو ضد مسلمي الأندلس، فتحرك نحو جنوب شرق الأندلس فعلا، والتقى بالملك في مرتوس، غرب جيان، فأحسن ألفونسو لقاءه، لكنه ما لبث أن غضب عندما رأى السيد ينصب خيامه في السهل، بينما عسكر الملك على قمة الجبل، ورأى في تصرفه شاهداً جديداً على تكبره، وقال لحاشيته: «أى عار يلحق بنا لذريق، جاءنا متعباً يشكو من رحلة طويلة قطعها ليلحق بنا، وما هو ينازعنا السهل، وينصب خيامه أمام خيامنا» وكالعادة فإن رجال الحاشية جعلوا الحق كاملاً في جانب الملك.

والتقى ألفونسو مع المرابطين، وفي البدء أوشك ميزان المعركة أن يتقلب لصالحه، غير أنه في النهاية أصيب بهزيمة قاسية، وأوشك الملك نفسه أن يقع صريع سيوف أعدائه، وطبعاً عُرِيت الهزيمة إلى تصرفات لذريق فغضب عليه الملك، وسبّه وحاول أن يسجنه، لكن السيد انتهز فرصة ظلام الليل وولّى هارباً، عاد نحو بلنسية بجزء من قواته، أما الكثرة الغالبة ففارقت وانضمت إلى جيش ملك قشتالة. حينئذ قرر الملك ألفونسو أن يعاقبه، وأن يضع حداً

لنفوذه، وذلك بانتزاع بلنسية منه، وكانت تدفع الجزية للسيد، فعقد حلفاً مع أهل بيشة Pisa وجنوة لكي يحاصروا المدينة بجزراً بينما يحاصرها هو من البر. واتجه ألفونسو إلى بلنسية فعلا وضرب عليها الحصار، بينما تأخرت سفن البشيين والجنويين.

في ذلك الوقت كان السيد في سرقسطة مشغولاً بمؤازرة ملكها المسلم، في صراعه مع ملك أرجون المسيحي، فلما نُمي إليه ما حدث غادر سرقسطة مع جيشه، واتجه إلى قشتالة نفسها، ينشر فيها الدمار والخراب، فانقض كالصاعقة على ناجرة وقلهرة، وهي من أملاك الكونت غرسية أوردونيبث عدوه اللدود، ثم أتى مدينة لوجرونو فجعل عاليها سافلها. وألحق بأهلها المسيحيين أضراراً بالغة، فلما اتصلت الأخبار بالملك ألفونسو رفع الحصار عن بلنسية، وقفل مسرعاً إلى مملكته لكي يتولى الدفاع عنها، بينما اتجهت السفن الجنوية والبيشية وقد جاءت متأخرة إلى طرطوشة.

كان السيد كالإعصار وهو يجتاح أرضى قشتالة، فدمرها تماماً، ولقد احتاج الملك إلى ثلاثة أعوام كاملة لكي يعيد بناء مدينة لوجرونو الصغيرة إلى ماكانت عليه.

سيّد بلنسية

إذا كانت أعمال السيّد قبل تمكنه من بلنسية تخضع للنقد التاريخي، وتدخل في نطاق الترجيح، فإن استيلاءه على هذه المدينة تم في وضع التاريخ، وتجمع عليه كل المصادر الإسلامية والمسيحية، والإسلامية أشد تفصيلاً وأكثر دقة فيما تقدم من أخبار، ولقد مرّت كبرى مدن شرق الأندلس بلحظات عصية قبل أن تقع بين فكي مغامر لا يرحم.

بعد أن رفع الفونسو الحصار عن المدينة بزمن قليل، اعترم البلنسيون أن يتخلصوا من العبودية التي فرضها عليهم السيّد، وكان السيّد أثناء تنقلاته الكثيرة قد اعتاد أن يترك بلنسية ممثلاً مباشراً له، مسلماً شديد الإخلاص لقضيته، اسمه ابن الفرّج. وكان قاضي المدينة أبو أحمد ابن جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافى رجلاً طموحاً، يتزعم في المدينة الحزب المناوي، للسيّد، ويناهض الحزب الذي يلتف حول القادر، ويعيش في حمى السيّد ويدفع له الجزية، فأرسل سراً إلى ابن عائشة قائد المرابطين، وكان يربط بجيشه في مرسية ودانية قريباً من بلنسية، بأن يساعده في تسلّم المدينة إذا ساعده في محاربة القادر والسيّد، واستجاب ابن عائشة لدعوته، واستيقظت المدينة ذات صباح على قرع الطبول، وسأل ابن الفرّج عن الخبر فقيل له: إن سرية من الجيش المرابطي في خمسمائة فارس تقف على باب تطيلة، ثم تبين أنهم لم يكونوا غير أربعين بقيادة أبي ناصر. ومع ذلك استبد المهرج بالمدينة، وقاد ابن جحّاف جموع الثائرين وانجبه إلى القصر الملكي، واعتقل ابن الفرّج ممثل السيّد، وعبثاً حاول العثور على القادر، لقد كان لدى الملك من الوقت ما أتاح

له أن يتزنى ملابس امرأة، وأن يحمل ثرواته الأغلى ثمناً والأندر نوعاً، ثم خرج من القصر بين عشيقاته، واختفى داخل منزل متواضع المظهر، في حى قليل الارتياح، ولقد نهب الثائرون القصر وأتوا على ما فيه دون إراقة دماء، فلم يقتل عنده غير جنديين.

كان ابن جحاف يعرف أكيداً أن القادر لم يغادر المدينة، فبحث عنه حتى وجدته، ونوى أن يستولى على ما معه من مجوهرات يخبئها، وبينها حلوى وجواهر الملكة زبيدة، وتساوى مبالغ طائلة، وطريقه إليها أن يتخلص من حياة الملك أولاً، فترك بعض جنده المخلصين على حراسته، وأمر إليهم أن يغتالوه إذا جاء الليل، وقام بالأمر رجل يدعى ابن الحديدى له عند القادر ثأر، فقد قتل في سابق طفيلانه بعض أقاربه. وحمل القتلة رأس القادر، وطافوا بها شوارع بلنسية.

وكان ذلك في آخر يوم من رمضان ٤٨٥ هـ = ٤ من نوفمبر ١٠٩٢ م، ثم طرحوها في مستنقع قريب، ودفعوا بجزء من الجواهر للقاضي ابن جحاف، واحتفظوا بالباقي لأنفسهم، وجاء بضعة رجال فحملوا بقية الجسد، ووضعوه في نعش، وغطوه بلبادة قديمة، وحملوه خارج المدينة، وواروه التراب بلا تكفين.

وأصبحت بلنسية جمهورية تحكمها «الجماعة»، نفس ما حدث في قرطبة وإشبيلية بعد سقوط الخلافة، وأصبح ابن جحاف القاضي رئيساً لها، ولعله أمل أن يكون في بلنسية ما كان ابن عبّاد القاضي في إشبيلية، أو ما كانه ابن جهور في قرطبة، ولكنه كان دونها فطنة وسياسة ووقاراً، فاستخف بأدى الأمر، غير أن الظروف أرغمته على أن يفكر بطريقة أكثر جدية، فبدأ

يُحشد الجند، ويحصن أطراف المدينة، ويستعد للطوارئ.

أثناء ذلك هرب بعض أتباع الملك، وعدد من جند ابن الفرج. وذهب جماعة منهم إلى سرقسطة تقص على السيد ما حدث، فسار نحو بلنسية، وانضم إليه كل المهاجرين، وأقسموا له بيمين الولاء، ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه، ونزل بجباله Cebolia وضرب الحصار حول بلنسية، واستولى على رضى «بله نوبة»، أى المدينة الجديدة، والكديّة، وأخذ يرسل العشرات من الغارات فى اليوم الواحد، ويأمر قواته ألا تدمر غير المعسكرات وألا تزجج سكان المزارع والفلاحين. بل وكان يبيع لسكان مريبطر الغنائم التى يحصل عليها وما يحتاجون إليه من تموين. ثم حاول أن يستميل ابن جحاف إلى جانبه فأرسل إليه بأن يطرد المرابطين من المدينة ويتعهد له بأن يصبح سيد بلنسية الوحيد، وأن يمدّه بالعون والحماية على نحو ما كان يفعل مع القادر من قبل. ولم يقطع ابن جحاف فى العرض قبل أن يستشير ابن الفرج صديق السيد ومثله من قبل، وأعرف الناس بما عليه، فنصحته بأن يعتمد على السيد. فبدأ ابن جحاف يمهّد للأمر، أرسل إلى السيد يخبره بأنه قبل عرضه، وقبّل من رواتب فرسان المرابطين بحجة أنه فى حاجة إلى الأموال ليرغمهم على ترك المدينة. غير أن القاضى لم يكن يثق فى السيد كثيراً، ولم يرد أن يقطع صلته بالمسلمين نهائياً، فعرض على «الجماعة» أن يرسل جانباً من الأموال التى أخذت من القادر إلى أمير المرابطين ليهيئ بها جيشاً يحمى لعونها عند الضرورة، فوافقت الأغلبية على القرار، وكلفت جماعة تتكون من خمسة أشخاص، بينهم ابن الفرج، بحمل هذه الأموال فى سرية تامة، لكن ابن الفرج أنبأ السيد سراً بما حدث، فافتق هذا أثرهم بفرسانه، وأدركهم فى الطريق، وجردهم من كل ما كان معهم من أموال.

غير أن انتصارات السيد خارج المدينة، وتقاعس المرابطين، واختلاف الكلمة في الداخل، جعل السكان راغبين في الوصول إلى اتفاق مهما يكن الثمن، وعندما طلبوا من السيد شروطه لتوقيع اتفاقية السلام، رد عليهم بأن يضعوا هم الشروط التي يريدونها شريطة خروج المرابطين. وأخيراً انتهت المفاوضات بينهم على أن يغادر المرابطون المدينة آمنين، وأن يدفع ابن جحاف ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من حنطة وقت مقتل القادر، وأن يدفع الجزية التي كانت تدفع من قبل، ومقدارها ١٠ آلاف دينار شهرياً مع متأخراتها من وقت أن بدأت الحرب، وأن تبقى الضواحي التي استولى عليها السيد بقوة السلاح له، وأن يسمح له بأن يعسكر بجيشه ما بقى في أرض بلنسية في حصن «جباله».

وخرج المرابطون من المدينة، بعد أن ملوا مؤامرات قادتها وصغارهم وسرعان ما نقض السيد عهده - كالعادة - وأخذ يتردد في جنده على ضواحي المدينة ويعيث فيها، وبرهق ابن جحاف بمطالبه المالية، بينما بدأ هذا يعان من المؤامرات الداخلية، ومن مناوأة الزعماء المحليين، وبخاصة بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين، وكانوا يتصلون بالسيد سراً، ويتأمرون معه على ابن جحاف. وحاول السيد أن يعجم عود القاضي، ويقيس مدى خضوعه، فطلب منه أن يتنازل له مع بعض أصحابه عن القصر الملكي ليقم فيه لبضعة أيام، وكلن يضم واحدة من أروع الحدائق العالمية، ووافق ابن جحاف، وهياً القصر ومدخله، فغطى الأرض بالسجاجيد الفاخرة، وأعد ولائم هائلة، وفي اليوم المحدد انتظر السيد طويلاً، ولكنه لم يجيء، ومع الظلام قدم رسول منه يقول إن مزاج لدريق مشوش، ويحول بينه وبين تحقيق ما وعد به، وأحسن البلنسيون قسوة الإهانة، وغضب لها الجميع حتى خصوم القاضي، وتولى ابن جحاف

والأشراف، وكانوا يرتجفون خوفاً على أراضيهم وضياعهم، تهدئة الجماهير، فلم يتحرك مخلوق.

ولما رأى السيد أن القاضى تجرّع الإهانة صاعراً ظهر فجأة فى حديقة القصر، وزاد فاستولى على الضاحية المحيطة به، بينما سكان بلنسية ينتظرون فى صبر نافذ تقدم جيش المرابطين، وسارع ابن جحاف فأعلمهم مهدئاً بأن إقامة السيد فى القصر الملكى مؤقتة، فلما أعرضوا عنه هدّد مناوراً بالتخلّى عن رئاسة الجماعة، والعودة إلى حياته الخاصة، فذهب البلنسيون إلى ابن طاهر يعرضون عليه أن يصبح رئيساً للجمهورية، وبدأوا يتمردون على ابن جحاف وسياسته، وأغلقوا أبواب المدينة فى وجه السيد. وبدأ المرابطون يتقدمون حتى وصلوا مدينة شاطبة، وانسحب السيد من حدائق القصر الملكى، واستقر رأيه على انتظار الأعداء حيث هو، وحطّم كل الجسور القائمة على نهر الوادى الكبير، وأغرق كل السهول المحيطة به، حتى لا يستطيع المرابطون أن يهاجموه إلا من طريق متعرج تماماً.

وعمت بلنسية فرحة غامرة لم يقدر لها أن تدوم طويلاً، فقد جاءهم من ينقل إليهم أن المرابطين لن يتقدموا، وأنهم نكصوا على أعقابهم، فأصبح الناس سكارى لا يفهمون ما يقال لهم، واسودت وحوهم، على حد تعبير مؤرخ مسلم، كما لو كانت قد طليت بالقطران، وفقد الناس ذواكرهم كما لو كانوا قد سقطوا فى أعماق المحيط. بينما شملت البهجة جنود السيد فأخذوا يسبون سكان المدينة ويتوعدونهم لكى يدفعوهم إلى التسليم، وعاد السيد مرة ثانية إلى القصر الملكى وحدائقه بينما الجنود همون يتطلعون إلى الساعة التى تتلح لهم لكى يهجموا على المدينة وينهبوا ما فيها.

ولم يفقد البلنسيون الأمل نهائياً في مساعدة تأتيهم، فقد كتب ابن عائشة، قائد جيش المرابطين، إلى بني طاهر يخبرهم بأن المرابطين لم ينسحبوا جنأً، وإنما لاعتبارات تتعلق بالتموين، وأن حملة جديدة تعد، وهى وعود شددت عزائم المحاصرين لوقت قصير، فقد جاءت الأخبار أخيراً بأن الجيش المرابطى عبر المضيق عائداً إلى المغرب، فهبطت الروح المعنوية للناس، وفقد ابن طاهر شعبيته، وبدأ ابن جحاف يسترد مكانته، ووجد الفرصة سانحة لكى يؤلب العامة على بني طاهر، وأهم بلا خبرة أو كفاية، وهم المسئولون عن كل الرزايا التى أصابت المدينة، وجاءه الناس يطلبون رياسته ثانية، وهو يتمنع ظاهراً بحجة أنه انصرف إلى حياته الخاصة، ولا يستطيع أن يعطى رأيه لأناس تغلب عليهم روح التعصب، وأن طريقهم لدفع الكارثة أن يتركوا خلافاتهم وأحقادهم، وإذا أرادوا نصحه وعونه، فليجردوا بني طاهر من سلطانتهم. وأمام المستقبل وظلامه استجاب له الناس طائعين وسويح برياسة الجماعة من جديد، فى فبراير أو مارس عام ١٠٩٤م.

كان ابن جحاف يتوقع معارضة بني طاهر وهم كثيرون وأقوياء، ولهم أتباع، فعمل على أن يثقل حركتهم، دعا السكان إلى العمل، ودفع الجزية المعتادة إلى السيد، على أن يدعهم السيد فى أمان. وأسّر إلى السيد أن يأتى إلى أسوار المدينة وأن يقول للبلنسيين إنه لن يستمع إلى أى اقتراح منهم قبل أن يترك بنو طاهر المدينة، وبعدها كلف ابن جحاف واحداً من قواده يدعى التاكرتى بأن يذهب ليلاً ويعتقلهم، ووضع تحت إمرته عدداً كبيراً من الفرسان والمشاة، واحس بنو طاهر، ولم تكن بيوتهم محصّنة، فلجأوا إلى منزل فقيه محيط به أسوار عالية، يحتمون به حتى تستيقظ المدينة ويحىء أتباعهم لساندهم، ولم يضع القائد وقته فى تسلق الأسوار، فأشعل النار فى الأبواب،

واقترح الجنود البيت، وبينما تكفل هؤلاء باعتقال بني طاهر، قام الغوغاء الذين تجمعوا من كل جانب بنهب ما فيه من مؤن وأثاث ومتاع، وألقى بهم ابن جحاف في السجن، لكنهم لم يبقوا فيه طويلاً، فقد عم الغضب بلنسية احتجاجاً على ما حدث لهم، وجاء السيد في مساء الغد فأطلق سراحهم، وتركهم يغادرون المدينة ويسكنون ضواحيها.

خرج ابن جحاف من المدينة إلى «بله نويه» لمقابلة السيد فكان في استقباله مطران شتمرية الشرق، وعدد من الفرسان، وفي ظنهم أنه سوف يهاديهم بشيء، وهو ما لم يفعله، فصحبوه إلى السيد فتلقاه في البدء باشاءً، وأمسك بركابه، وعانقه، ورغب إليه أن يخلع لباس القاضي، وأن يرتدى زى الملوك، لأنه ملك فعلاً، وطال الحديث، وتوقع السيد أن يقدم له ابن جحاف شيئاً من جواهر القادر وتحفه، فلما لم يفعل غير لهجته، ووعد ابن جحاف بجهيته وصداقته، مقابل شروط ساقها إليه شرطاً وراء آخر، الأقل صعوبة فالأصعب إلى أن انتهى به إلى موقف قاس مهين. أن يتنازل له عن نصف دخل المدينة والمزارع المتصلة بها، وأن يقوم بجباية ضرائها مشرفه الخاص، وقبل ابن جحاف، فزاد السيد: وأن يقدم القاضي ابنه رهينة لتنفيذ الشروط، وامتنع وجه ابن جحاف، ولكنه كبح مشاعره ووافق، فطلب منه السيد أن يأتي في اليوم التالي ليوقع الشروط، وعاد القاضي التعس إلى بلنسية، وقلبه يقطر أسى، لقد عرف كم كان متهوراً عندما وافق على أن يرغم المرابطين على الرحيل وأن يثق في السيد.

ولم ينجى القاضي في اليوم التالي، وأرسل السيد في طلبه، وكان رد ابن جحاف إنه يفضل أن يعقد رأسه قبل أن يضحي بابنه، وغضب السيد من

رده، وتوعده بأنه وقد أخلف وعده لم يعد أهلا لصداقته، وبدأ الاتفاق بين الاثنين مستحيلا، وأخذت الحالة في المدينة تندهور سريعا، فقد أحكم السيد الحصار حولها، وبدأ جنوده يقربون من أسوارها، وتهاوت أسعار البيوت والأثاث. فكل الناس يريدون البيع وليس هناك راغب في الشراء، وارتفعت أسعار الأغذية بشكل جنون، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهرا، فثك الجوع بالسكان، وأكل الناس الفيران والكلاب والجيف، وبلغ ثمن رطل القمح مثقالا ونصفا، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم، ورطل البقل بخمسة دراهم، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم، ورطل اللحم بستة دنائير، وعظم البلاء، وتضاعف الغلاء، وأصبح الناس سواء، الفقراء والأغنياء، وكان من المناظر المألوفة أن ترى جمعا من الناس يفتش عن بقايا عنقود من العنب بين المجارى ومزالق القمامة، وعشرات من الرجال والنساء والأطفال يتربصون اللحظة التي يفتح فيها أى باب من أبواب المدينة لكي يندفعوا هارين إلى معسكرات السيد، فينتهى بهم الأمر إلى أن يقتلوا فوراً، أما الذين فيهم بقية من رمتق، فيباعون إلى مسلمى الكودية، برغيف من الخبز أو زق من النبيذ، وكان هؤلاء يموتون عادة قبل أن يحصلوا على مايسد الرمتق، وأخيرا فالذين يصلون في صحة لا بأس بها، من الطبقات الموسرة، يباعون لتجار الرقيق الذين توافدوا في أعداد هائلة من وراء البحر.

وإزاء هذا الموقف البالغ السوء كتب ابن جحاف إلى المستعين ملك سرقسطة، يصور له مآسى المدينة ويطلب عونه، ودفعت بالكتاب إلى رجل خرج من المدينة تحت جنح الظلام، غير أن المستعين لم يكن راغبا في الاصطدام مع السيد صديقه وعميله القديم، فترك الرسول ينتظر ثلاثة أسابيع، وأخيرا وبعد إلحاح من الخاشية سلمه رداً يخبر فيه ابن جحاف بأنه سوف يكتب للفونسو ملك قشتالة يطلب عونه، وينصحه أن يتذرع بالصبر، وأن يقاوم، «وأعلمنى

بأخبارك بين حين وآخر». وتابع ابن جحاف خطته، وبدأ يحفر المنازل بحثاً عن الأغذية، ويستولى على ما يجده منها، ولا يترك للملاك إلا مئونة نصف شهر. يدفع ثمن ما يأخذ أحياناً، وعادة لا يدفع شيئاً، ولكنه يعد دائماً. وكان رده بإزاء أى احتجاج، إنها محنة، على الجميع أن يتقاسموا ضراءها، وأن يواجهوها صابرين. ونفذت الأطعمة وترمق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعرق السوس، وبالفيران والقطط وجيف الأدميين. وفي دوامة المحنة، صعد بلسى مسلم أعلى برج في المدينة، وألقى قصيدة مؤثرة، بكى فيها المدينة، وصوّر مأساة سكانها، وهي قصيدة تستحق وحدها وقفة خاصة، ودراسة مستأنية وعرضناها في مكان آخر^(١).

وتوالت رسائل ابن جحاف للمستعين ملك سرقسطة يطلب النجدة، ولم يكن عند المستعين ما يقدمه غير وعود لم يوف بها أبداً وأنه طلب عون الفونسو ملك قشتالة، فرد عليه بأنه أرسل له غرسية أوردونييث عدو السيد اللدود، مع عدد من الفرسان القشتاليين، وأنه سينحق بهم شخصياً. وكتب ابن جحاف نفسه إلى أصدقاء الملك الفونسو، غير أن هذا أثر أن يراوغ حتى يرى كيف تستبين الأمور.

كان السيد يدرك جيداً ما يكلفه الهجوم على المدينة قبل أن يدمرها من الداخل، فحاول أن يثير الناس على ابن جحاف، وراسل بعض السكان ليثوروا، ولكن القاضي علم بالمؤامرة، وقضى على رءوسها، قتل بعضهم، وألق بالآخرين في السجون.

ومع الزمن كان الجوع يأخذ بمخناق المدينة، على نحو لم تعرفه الإنسانية،

(١) انظر فصل: «مرثية بلنسية ضائعة»، من كتابنا: دراسات أندلسية، في الأدب والتاريخ

ولا في لحظات الأوبئة الطاحنة، لم يعد القمح يباع بالرطل، وإنما بالحفنة، والحفنة تساوي ما يزيد على خمس ليرات، والليرة الواحدة تساوي ثلاثة دنانير والناس يسقطون موتاً من الجوع في الأسواق والميادين والشوارع وحول جدران الحصون، وتحولت الأراضي الخالية إلى مقابر، وكل قبر يضم عشر جثث على الأقل، وفضل الناس أن يهربوا إلى معسكر السيد، يموتون هناك بضربة واحدة، أو تكتب لهم الحياة فيصبحون رقيقاً.



وخلال تقدم الجوع كان السيد يستعجل النهاية، لأنه يخشى وصول المرابطين، وراودته فكرة أن يستولى على المدينة بضربة واحدة، وغررَ به عملاؤه داخلها، وهكذا جمع كل قواته، وأمر باهجوم على باب الخنث، وما إن تقدّموا حتى غطاهم طوفان من الأحجار والسهام، بقوة لم يعرف لها السيد مثيلاً من قبل، واضطر أن ينجي في هام، فاقتحمه جنود ابن جحاف، فهرب من باب خلقى صغير، وفشل مشروعه تماماً، وندم بمرارة لهذه الغلظة، وقرر ألا يعود لها ثانية، وأن يسير على خطته الأولى، وهو أن يستولى على المدينة عن طريق الجوع. وعمل في الوقت نفسه على زيادة الأفواه غير الضرورية في المدينة، فأعلن بواسطة مناد اقترب من المناريس ليسمعه المحاصرون، يأمر فيه سكان بلنسية الذين خارجها أن يعودوا إليها، ويهدد كل شخص يحاول الخروج منها بالحرق حياً، ووضع تهديده موضع التنفيذ فأحرق علانية، على أكوام من الحطب متأججة، ثمانية عشر رجلاً في يوم واحد، ومع ذلك كان هناك من يفضل أن يموت محترقاً في ساعة، على أن يموت جوعاً على امتداد أيام، وبعضهم نجح في أن ينقذ حياته، لأن جنود السيد كانوا يجسّونهم، ويبيعونهم رقيقاً في غفلة من قائدهم، والحق أن مثل هذا العمل كان ترفاً نُصت به الفتيات والأطفال. وأحياناً إذا عرفوا أنهم ينتمين إلى أسر غنية صعّدوا بهم إلى

مأذن المساجد التي خارج المدينة، يتظاهرون برميهم أحياء أو رجمهم بالحجارة، فيفتديهم أهلوهن بالجواهر والأموال، شريطة أن يسمح لهن بالبقاء في أرض الكودية.

وهكذا حققت المجاعة أغراضها، وبدا أقارب ابن جحاف وجنده من دعاة الاتفاق مع السيد، بعد أن استفد الناس طاقتهم في تحمل الآلام، ولم تعد لديهم أية قدرة، وفقدوا الأمل نهائياً في مساعدة تأتي من قبل المستعنين ملك سرقسطة أو المرابطين، فاجتمعوا لدى الفقيه أبي الوليد الوقشي لكي يكلم القاضي ابن جحاف، وأرغموه على مفاوضة السيد، وعقد الصلح، فأذعن وترك لهم أمر المفاوضة، فذهب وفد منهم لمقابلة السيد، وتم الاتفاق على أن يعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة، وإلى ابن عائشة قائد المرابطين في مرسية يطلبون الغوث والإيجاد في عدة خمسة عشر يوماً، وأن يقوم ابن عبدوس خلال ذلك بالإشراف على المدينة، وأن تُسلم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة في خلال المدة المنوطة سلمت بلنسية بالشروط التالية : يتولى ابن جحاف منصب القاضي الذي كان يشغله من قبل، ويؤمن في شخصه وماله ونسائه وأطفاله، وأن يصبح ابن عبدوس، وكان موضع ثقة السيد والبلنسيين معاً، مسئولاً عن الضرائب، وأن يصبح موسى، وكان حاكماً للمدينة أيام القادر، وزيراً مسئولاً عن بلنسية، وأن يقيم السيد في « جباله » وأن تحترم شريعة المسلمين وعاداتهم وعملتهم التي كانت سائدة، وألا تزيد نسب الضرائب التي كانت مفروضة من قبل.

وفي اليوم التالي لتوقيع الاتفاق رحل خمسة من البلنسيين إلى سرقسطة ومثلهم اتجهوا إلى مرسية، واشترط السيد ألا يحمل أى منهم أكثر من خمسين ديناراً، وكان الذاهبون إلى مرسية سيبحرون في سفن مسيحية تحملهم إلى دانية

أولاً، ومن هناك يتابعون الرحلة برأ، وصعد السفراء ولم تتحرك السفينة، فقد كانت الأوامر التي لدى القبطان ألا يتحرك قبل أن يصل السيد نفسه، وجاء فعلاً، وقام بتفتيشهم شخصياً، فوجد معهم أموالاً كثيرة يحملونها لأنفسهم أو حملها لهم بعض التجار لكي يفلتوا بها من قبضة الحصار فانزعجها منهم، ولم يترك لهم غير المبلغ المتفق عليه.

وخلال الهدنة بدأ المتاجرون في السوق السوداء يبيعون ما عندهم من أطعمة بأعلى الأسعار، لأن الحصار سوف يرفع قريباً، ومرت الخمسة عشر يوماً، لكن أحداً من السفراء لم يعد، وحاول ابن جحاف أن يقنع السكان بالانتظار ثلاثة أيام أخرى فكان ردهم بأنهم لا يريدون ولا يستطيعون، بينما أقسم لهم السيد بأعظم الأيمان، بأن مرور لحظة واحدة بعد الموعد المحدد دون تسليم المدينة يجعله في حل من الاتفاق. ومر يوم دون أن تفتح المدينة أبوابها، وعند ما ذهب الذين وقعوا الاتفاق لمقابلة السيد قال لهم: إنه غير ملزم بشيء على الإطلاق، لأن موعد التسليم قد فات. غير أن الناس ألحوا عليه في أنهم يضعون المدينة بين يديه. وفي اليوم التالي خرج ابن جحاف صحبة زعماء المدينة من المسلمين والمسيحيين إلى مقابلة السيد ووقع معه اتفاقاً بتسليم المدينة، ثم عاد إليها، وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً فتحت الأبواب، وكان ذلك في يوم الخميس ١٤ من يونية عام ١٠٩٤. وتجمعت الجماهير التي طحنها الجوع، وجوههم مصفرة، وأنفسهم كسيرة، كما لو كانوا في يوم الحشر يعيشون من القبور، ليثلوا أمام جلال الله.

وعند ما فتحت الأبواب تدفق جنود السيد داخل المدينة، فاحتلوا المناريس والقلاع، ولم تُجد صيحات ابن جحاف القاضي بأن هذا نقض لنصوص الاتفاق، بينما شغل البلنسيون بالحصول على الطعام.

جاء باعة الخبز والفول من الكودية، فتدافع الناس عليهم في شراهة بالغة، وذهب الأغنياء إلى الريض بأنفسهم يشترون من هناك كل ما تسمح لهم به دخولهم، وانتشر الفقراء لا يملكون مابه يطعمون في الحقول المجاورة، يجمعون الحشائش ويقتاتونها، ولم تهبط نسبة الموق كثيراً، فبالأمس كانوا يموتون جوعاً، وهم اليوم يموتون تخمة.

وصعد السيد برج أعلى قلعة، وتفحص المدينة، وجاء السكان يقبلون يده فكان يستقبلهم مرحباً، وأمر بتغطية نوافذ الأبراج التي تطل على المدينة، حتى لا يتطلع فضولى من الجنود إلى ما يجري داخل بيوت السكان، وأمر المسيحيين بأن يظلوا على احترامهم للمسلمين، يسلمون عليهم إذا مروا بهم، ويفسحون لهم في الطريق إذا التقوا معهم، وأخذ المسلمون للوهلة الأولى بتخلقه وسياسته، وتنظيم جيشه، وحاول ابن جحاف، وعرف إن السيد غضب عليه يوم أن ذهب للقاءه بلا هدايا، أن يقدم له جانباً من الأموال التي جمعها من بيع الخبز غالباً أيام قحط المدينة، خلال الحصار، ورفض السيد قبولها لأنه كان يعرف مصدرها.

وأرسل منادياً يطوف بالمدينة يدعو «الفرسان والرجال الشرفاء» إلى حضور اجتماع يعقده السيد في حدائق ضاحية «بله نوبه» وجاء بالنسيون آخرون كثيرون كانوا قد تركوا المدينة خلال الحوادث إلى ليريا ومرسية وجيان، وصعد السيد على منصة غُطيت بالسجاد والحصر، وبدأ يحطّب الحاضرين عن قضايا عديدة، ولم تشر المصادر العربية إلى هذه الخطبة، ولكن «المدونة الأولى للتاريخ العام» أوردت نصها كاملاً باللغة القشتالية ولا يشير أى مصدر إلى اللغة التي ألقيت بها، ومن المؤكد أن السيد كان يجيد عامية أهل الأندلس، وأنه تحدث بها، لأن جمهوره، والذين كان يعينهم بالخطبة، من المسلمين. ونقل فيما يلي جانباً منها:

« إنني رجل لم يكن لي ملك قط، ولم يكن كذلك لأحد من قومي، ولكن منذ اليوم الذي رأيت فيه هذه المدينة وجدتها تطيب لي، ورغبت فيها، وسألت الله أن يجعلني سيدها، فانظروا إلى قدرة الله الذي أنعم علي بأن وهبني بلنسية، وإن حكمت بالعدل وأحسنتم تصريف الأمور فسيتركها الله لي، أما إن تجبرت وأسأت فسيتردها مني، فليرجع كلُّ إلى ما له ويتملكه كما كان يتملكه من قبل، فمن وجد كرمه أو جنته خالصة فليعد إليه، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع أجر زراعته ويتملكه كما تأمر الشريعة الإسلامية، ولا يأخذن جياة الضرائب في المدينة أكثر من العشر كما جرى عليه العمل، وقد هيأت نفسي لأسمع الشكاوى يومين من كل أسبوع، هما الاثنين والخميس، ولكن من كانت له قضية عادلة فليأت متى شاء وسأستمع إليه، فإن لا أحتجب عنكم، ولا أخلوع النساء للشراب والغناء كما كان يفعل أو لو أمركم ممن لم يُمكنكم قط رؤيتهم، وأود أن أعالج جميع أموركم بنفسى، وأن أكون لكم رفيقاً، وأدافع عنكم كما يدافع الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه، وسأكون قاضيكم ووزيركم، وإن شكا أحدكم من آخر أنصفته منه ».

واختتمها بقوله : « أنا لست راغباً في دخول مدينتكم، ولا أريد أن أسكنها، ولكنني أريد أن أبنى منزلاً فوق جسر القنطرة أجيء لأستريح فيه من حين لآخر، وأعدكم بأنني سوف أتنازل عنه حين يحتاج أحدكم إليه ».

سمع البلنسيون الخطبة، وغمرتهم البهجة، وصدقوا وعود السيد، غير أنهم عندما ذهبوا ليستردوا أراضيهم رد عليهم جنوده الذين كانوا على الأرض بأنهم تلقوها منه مقابل مرتباتهم لهذا العام؛ بينما تذرع آخرون بأنهم استأجروها ودفَعوا الإيجار فعلاً، ولما ينته موعده بعد! فانتظر المسلمون حتى الخميس، اليوم الذي حدده السيد ليفصل في الخصومات.

وجاء الخميس، وجلس السيد في الحديقة على منصة، وتقدموا له بشكاياتهم

وبدأ يقول أشياء لا صلة لها بثنائاً بما كان قد وعدهم به في الخطبة السابقة : « إذا بقيت بدون رجال كنت كمن فقد ذراعه اليمنى ، أو كمحارب بلا سيف ولا سهام ، الشيء الأول الذى يهمنى في هذا النزاع وأخبركم به ، هو أننى اتخذ أفضل السبل لحماية نفسى ورجالى ، لأن الله وهبى بلنسية بإزادته الطيبة ، ولا أحب أن يكون فيها سيد غيرى ، ولكن إذا كنتم معى ، وأردتم أن يشملكم عفوى ، فكنون من ابن جحاف ، لأنكم جميعاً تعرفون الخيانة الكبيرة التى ارتكبها ضد سيده ملك بلنسية ، والشقاء الكبير الذى جعله يتعرض له ، وتعرضون له أنتم أيضاً أثناء حصاركم . »

ذهل المسلمون مما سمعوا ، لقد وجدو السيد ليس بأفضل من الوعود التى قطعها لهم ، فردوا عليه بأنهم سيتشاورون فيما بينهم قبل أن يقرروا شيئاً . وذهب ثلاثون منهم إلى مقابلة ابن عبدوس المشرف على الضرائب ، وصديق السيد ، يطلبون نصحه فيما يجدون من تغير السيد ونكته في الوعود ، وكان رد ابن عبدوس : « أيها السادة النبلاء ، النصيحة من السهل التقدم بها ، لقد ارتكب ابن جحاف ضد سيده خيانة عظمى ، اتفقوا الآن كيف تمكن السيد منه ، لا تترددوا ولا تخافوا شيئاً ، لأن أعرف أنكم بعدها لن تطلبوا من السيد شيئاً إلا أجابكم إليه . »

وعاد المسلمون سريعاً إلى السيد ، يوافقونه على تسليم ابن جحاف ويطلبون قوة ضخمة للتنفيذ ، وذهبوا جميعاً إلى بيت القاضى ، فحطموا الأبواب ، وقبضوا عليه وعلى كل الأسرة ، وحملوهم جميعاً إلى حضرة السيد فرمى بهم في السجن ، ومُهل إليه أيضاً كل الذين شاركوا في قتل القادر ملك بلنسية ، ثم قال لهؤلاء الكبار : « لقد نفذتم ما أمرتكم به ، فائثرون بما تريدون ، سوف أنفذ لكم ما يتصل بالزراع ، شريطة أن تكون إقامتى داخل المدينة ، في القصر ، وأن يقوم جنودى بحراسة كل القلاع » ، وكانت هذه مخالفة ثانية للاتفاق ، أحنى لها البلنسيون رءوسهم طائعين .

نقل السيد ابن جحاف إلى جبالة، وأمر بتعذيبه حتى الموت، ثم رده ثانية إلى بلنسية، وأودع السجن في حديقة القصر الذي يسكنه السيد، وهناك أمره بأن يكتب بخط يده قائمة بكل أملاكه، فسجل ابن جحاف كل شيء: القلائد والخواتم، والمجوهرات، والأثاث، والملابس، والديون أيضاً. وألقى السيد نظرة على القائمة، وطلب دعوة سكان بلنسية المسلمين والمسيحيين ليحلف بمحضرتهم أنه لا يملك شيئاً آخر، وأن من حق السيد أن يعدمه إذا ظهرت له أملاك أخرى. ولم يثق السيد كثيراً في يمين القاضي، كان يعرف أن القادر ملك بلنسية المقتول أغنى من عرفت الأندلس، وأن ابن جحاف مازال يحتفظ بالكثير من ثروته. فأمر بتفتيش منازل أصدقائه، وهدد بمصادرة أولئك الذين يساعدون القاضي في إخفاء ثروته وإعدامهم، وبدأ الذين ترك ابن جحاف عندهم شيئاً من ماله لحراسته، ثم اقتسامه بعد أن تمر المحنة، يتخلصون مما لديهم هرباً من العقاب، واتماساً لعفو السيد. ثم أمر أيضاً بنهب بيت القاضي وبمعاونة واحد من خدمه ووجدت تحت الأرض ثروة ضخمة من ذهب وجواهر وأحجار ثمينة.

وأثناء ذلك جمع السيد كبار رجال بلنسية ليخطبهم من جديد: «أيها العقلاء من جماعة بلنسية، أنتم تعرفون كم خدمت ملككم وساعدته، وكم من الجهد بذلت لأربح هذه المدينة، والآن وقد شاءت إرادة الله أن تجعلني سيدها، أريدها لي، ولأولئك الذين ساعدوني على ربحها، أنتم الآن جميعاً في قبضتي، أصنع بكم ما أريد وما أراه نافعاً. أستطيع أن أستول على ما تملكونه في كل العالم، وعلى أشخاصكم وأولادكم ونسائكم، ولكني لا أريد أن تحمى الأمور على هذا النحو، وإنما لخير الجميع أمرت أن يبقى الرجال الأشراف منكم، ممن أظهروا ولاءهم لي في بلنسية، في نفس منازلهم مع أهلهم، على ألا يملك أي واحد منكم أكثر من بغلة، ومن خادم، ولا يحملون سلاحاً، ولا تحتفظون به في بيوتكم إلا عند الضرورة وبإذن مني. أما البقية فعليها أن تترك المدينة، وأن تقم في ضاحية الكوردية، حيث كنت أعيش قبلاً، ستكون لكم مساجدكم في بلنسية، وفي

خارجها، وفي الكودية، ولكم فقهاؤكم، وتعيشون طبقاً لشريعتكم، ويكون لكم قضاتكم ووزيركم الذين أعينهم أنا، وستكون لكم مزارعكم، ولكن أعطون الحق في أن أحصل على كل الضرائب، وأن أشرف على القانون، وأن تكون لي عملي الخاصة، والذين يقبلون سيادتي ويريدون أن يبقوا معي يبقون، والذين يريدون أن يذهبوا أمتي لهم في مغامرهم حظاً سعيداً، على أن يذهبوا بأشخاصهم فحسب لا يحملون معهم شيئاً، ولقد أمرت بأن تكونوا جميعاً في أمان».

وأدرك الحاضرون ما يريد السيد، وغمرهم حزن العاجز، فلم يكن بوسعهم غير التنفيذ، فبدأ سكان بلنسية يخرجون من المدينة بنسائهم وأطفالهم، عدا أولئك الذين رضوا عنهم السيد، وفي نفس الوقت فإن عدداً من أتباعه فارق الكودية ليقيم في المدينة مكان الذاهبين، وكانت أعداد الخارجين والوافدين كبيرة، واستمرت طوال يومين كاملين.

وأصبح السيد سيد بلنسية المطلق، ولم يعد يحمل بشيء أكبر من الحكم بالطريقة الأشد قسوة وإرهاباً، ومضى في طفياته فقرر أن ينتقم من القاضي ابن جحاف وأهله، بعد «أن استصق أمواتهم، واستفد أحوالهم، فلم يترك لهم لا ظاهراً ولا باطناً». فقرر أن يقتله حرقاً. فأمر بإضرام النار، وحُشِر الناس مسلمين ومسيحيين، وسبق القاضي يرسف في قيوده، وأهله وبنوه حوله. وحُفِر للقاضي حفرة وأدخل فيها إلى حُجزته، وسوى التراب حوله، وضمت النار إليه، فلما دنت منه، ولفحت وجهه قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم ضمها إلى جسده، لتكون أسرع في إنهاء حياته، ولفظ أنفاسه الأخيرة وسط الآم مريعة، رحمه الله تعالى!

ومتعطش إلى الدماء، كما يقول دوزي، أراد السيد أن يحرق أيضاً زوجته، وابنه وبناته، وسائر أسرة بني جحاف، فضج الناس غاضبين وراجين، ومعهم حتى جنود السيد، وتشفعوا عنده أن يرحم على الأقل النساء والأطفال، وقد رفض

في البدء أن يستجيب لشفاعتهم، غير أنه قبل في النهاية أن يستثنى النساء والأطفال. وعمد إلى الجللة من أهل بلنسية فثقتهم وأغرمهم، واستأصل جميع ما عندهم، وجعل الناس في المحنة سواء، وأحرق عدداً آخر منهم، بينهم الشاعر الرقيق أبو جعفر البتي، لسبب غير معروف، وربما طيشاً دون حاجة إلى سبب.

كان لابن جحاف خلال حياته أعداء كثيرون، وكانت تصرفاته تتسم بالخفة والرعونة، لكن إحراقه ارتفع به إلى منزلة القديسين في نظر البلنسيين، وجعل منه شهيداً في نظر المسلمين والمسيحيين، وحتى خصومه نسوا أخطاءه القديمة فبكوه، ولم يعودوا يذكرونه إلا بالثناء الفيّاض. وتم إحراق القاضي في شهر مايو ١٠٩٥ م. وحاول أهل بلنسية الثورة على السيد، ولكنه أخذها سريعاً، ونفس القسوة.

احسَّ السيد بأنه أصبح السيد المطلق، فجعل من المدينة مقره العسكري، وتصرّف كما يتصرف الملوك المتوحّجون، وأراد أن يستريح بعض الشيء فأرسل في طلب زوجته وأبنائه الثلاثة، وهم ديميجو، ومات عام ١٠٩٧ في زهرة شبابه إثر الهزيمة التي أنزلها المرابطون بجند قشانة في قنيطرة، وفتاتان هما: كريستينا وماريا، تزوجت الأولى بعد ذلك بأعوام الأمير راميرو دي نبرة، وتزوجت الثانية رامون بيرنجر الثالث كونت برشلونة، وكان زواجهما يمثل الغاية التي انتهت إليها حياة السيد.

رُوع الأندلس لسقوط بلنسية في يد السيد، كما رُوع من قبل لسقوط طليطلة في يد ألفونسو، وأرسل المسلمون إلى ابن تاشفين أمير المرابطين يطلبون عونه، فقرر أن يترد المدينة، وندب ابن أخيه محمد بن تاشفين ليقود الحملة، وكتب إلى حاكم غرناطة وإلى أمراء شرق الأندلس أن يجمعوا الجند، ويسيروا لاسترداد بلنسية، وعبرت الجيوش المرابطية من سبتة في المغرب في سبتمبر ١٠٩٤، أي لأربعة شهور من سقوط المدينة، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية وعسكروا في «مسلانة» غربي بلنسية، وصلوا عيد الفطر هناك، ثم بدأوا الهجوم.

وقد أدرك القائد المرابطى شدة تحصين المدينة، وكان الأمل في مساعدة تأق من الداخل معدوماً، فقد جرد السيد المدينة من كل عناصر المقاومة، أخرج منها من شك في ولائهم له، وجردها من سائر السلاح فلم يبق فيها من يملك مسباراً من الحديد، فقرر أن يضرب حولها الحصار، نفس السلاح الذى استخلمه السيد من قبل. واستشار السيد منجمه، وزجر طيره، ثم أطمأن للنصر، وأشاع الخبر بين جنده، وخلال ذلك أرسل يطلب عون **بدرو الأول** ملك أرجون، و**ألفونسو السادس** ملك قشتالة، غير أنه لم يعلق على عونها كثيراً، فقد كان يعرف المشاكل الداخلية الكثيرة التى تقيد حركتها. ومن ثم سارع إلى الهجوم، فخرج بقواته ليلاً، بعد أن خدع المحاصرين، وفاجأهم بشدة، فأوقع الذعر والاضطراب في صفوفهم، فترجعوا مسرعين، واستولى منهم على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والمؤن والملابس والأموال، وقتل من المسلمين عدد كبير، ثم عاد إلى المدينة فامتنع بداخلها من جديد.

وبدا السيد يحلم بدولة أكثر اتساعاً، فأخذ يهاجم ما حوله من حصون وقلاع ويستولى عليها إن استطاع. وركز بصفة خاصة على قلعة Olocau، فقد كان يعتقد أن فيها جانباً كبيراً من ثروة القادر ملك بلنسية السابق، هربه إليها قبل مقتله، وكان السيد ينهها إلى المال يريده بأى عن، وعلى وعى كامل بدوره في الحياة، وفي مثل ظروفه على نحو خاص. غير أنه كان يحس بأن حياته قاربت النهاية فبدأ يصلح ما بينه وبين السماء، ببناء الكنائس، والإغداق على الأديرة، « ذلك الذى أحرق عدداً كبيراً من الناس أحياء، وآمن بالعرافة، وعمل جُل حياته مقاتلاً في خدمة أمراء مسلمين ». وتوَج عمله مخالفاً نصوص وروح كل الاتفاقيات، فحوّل مسجد المدينة الجامع إلى كاتدرائية وأطلق عليها اسم « سانتا ماريا » وأهداها كأساً أنيقة من الذهب وسجادتين مزركشتين صن أروع ما رأت العين. وعندما جاءت الأنباء بأن ابنه الوحيد **دييجو** قُتل في المعركة التى دارت بين **ألفونسو** ملك طليطلة وبين جيش المرابطيين، وكان النصر فيها

للمسلمين، سقط مريضاً، ورغم مرضه أرسل فرقة من الجيش إلى شاطبة، لتنتزع المدينة من المرابطين، فاصطدمت بجيش المرابطين بقيادة ابن عائشة، وكان عائداً لتوّه من معركة مع قوات ألفونسو بقيادة ألبار هانييث، انتصر عليهم فيها قريباً من قونقة، ولم يكن جنود السيد بأسعد حظاً من جنود الملك، فكانت هزيمتهم ساحقة، ولم يعد منهم إلا القليل، وأصبح الطريق إلى بلنسية مفتوحاً لمن يريد. وهكذا فإن الجيش الذي عُرف بأنه لا يُقهر أبداً قُهر فعلاً، وكانت الهزيمة ضربة قاصمة للسيد فأت غماً وكمداً وحزناً في العاشر من شهر يولية عام ١٠٩٩م، وهو في السادسة والخمسين من عمره.

حاولت دونيا خمينا أرملة السيد أن تدافع عن بلنسية ضد هجوم المرابطين عملاً بمشورة الحاشية التي كانت تحيط بزوجها، واستطاعت أن تصدهم على امتداد عامين. غير أن المرابطين شددوا الحصار، وضيّقوا الخناق على المدينة بجيش كبير للغاية، تحت قيادة الأمير أبي محمد المزدي، فأرسلت خمينا المطران خيرونيمو، من أصل فرنسي، إلى بلاط الملك ألفونسو يرجوه المساعدة، وأثر الأسقف في الملك، كما أثر من قبل في السيد فجعله يحول كل المساجد إلى كنائس، فأسرع يقدم لها المساعدة، ولم يصطدم المرابطون بالجيش القشتالي القادم، وآثروا أن يستمروا في حصار المدينة دون قتال، ورأى ألفونسو ما عليه الجيش الإسلامي من ضخامة، فلم يرد أن يغامر في معركة لا يضمن نتائجها، وفي بلد بعيد عن مملكته، فنصح خمينا، بأن تغادر المدينة، فعزمت على الرحيل ومعها أغلبية المسيحيين، خرجت ومعها ذخائر القادر بن ذي النون ملك بلنسية السابق؛ والأموال الهائلة التي غنمها زوجها السيد خلال غزواته ومغامراته، ثروات هائلة سوف يستولى ألفونسو على جلّها فيما بعد، وخرج معها ألفونسو وجنوده، وهملت معها جثة زوجها بعد أن نبشت قبره في ٥ من مايو ١١٠٢م.

لقد كانت بلنسية مدينة جميلة، فعزّ عليهم أن يتركوها للمسلمين

يستمتعون بها بعدهم، فأسلموها للنار والدمار، ولم يغادروها إلا بعد أن أصبحت أطلالا دارسة، وكان على المرابطين أن يحولوا الخرائب والأنقاض إلى مدينة جديدة تضح بالحياة والناس، وهذا ما كان.

ذهبت دونيا حينما لتعيش في قشتالة، وحملت معها جثمان السيد، لقد طُرد من هناك منفياً، ولم يقدر له أن يعود إلى مسقط رأسه إلا جثة هامدة، ودُفن في فناء كنيسة سان بطرس في كاردينيا، قريباً من برغش، ولم تعش بعده غير خمسة أعوام، لأنها توفيت في ١١٠٤م ويق السيد مدفوناً في مكانه، ثم بدا لألقونسو العالم أن القبر دون ما يستحق، فمن نسله ينحدر بعض ملوك إسبانيا، فشيد له عام ١٢٧٢م قبراً جديداً، وبعد ذلك، في عام ١٤٤٧م، جُددت الكنيسة، فوُضعت جثة السيد في لحد جديد ينهض على أربعة تماثيل لأربعة أسود، وفي عام ١٥٤١م نُقلت إلى جانب الحائط، فقد استكثروا عليه أن يقوم ميتاً على أكتاف أربعة أسود، غير أن شارل الخامس، أصدر أمره بأن يوضع في القاعة الرئيسية للكنيسة لما هو عليه من شهرة ونبل وبطولة.

وفي عام ١٨٣٥م، اجتاحت إسبانيا عادة الاعتداء وسرقة الآثار الهامة، دينية وسياسية، ولم تنج من هذا الاعتداء لا جثة السيد، ولا جثة خالمة الأول ملك أرجون، فنقلت جثة السيد إلى كتدرائية برغش الكبرى عام ١٨٤٢، ولا تزال فيها حتى الآن، ولو أن رهبان دير كاردينيا يطالبون به، بعد أن أصبح قبر السيد مورداً هاماً من موارد السياحة في المدينة، فما من إنسان يهبط برغش إلا ويذهب لرؤيته متأملاً أو مترجماً.

لقبان : السيد والقنبيطور

اسمه الحقيقي رودريجو دياث دي بيبار Rodrigo Diaz de Vivar وكلمة رودريجو وردت في الوثائق الأندلسية تحت صورة لذريق في المصادر الأوربية من الفتح، مثل « أخبار مجموعة » لمؤلف مجهول، « وتاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية، وغيرهما. وفي صورة رذريق في المصادر المتأخرة، كمؤلفات ابن الأبار، و« الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام، ذلك أن الوافدين أصبحوا أكثر فهماً وتمكناً من اللغة الرومانثية، وتبيننا لحروفها، لكن الفارس الأندلسي دخل التاريخ بلقبين أكثر ذكراً ودوراناً.

أول اللقبين كلمة السيد El Cid ، ولا تأتي في الملحمة إلا مضافة إلى ضمير المتكلم سيدي mio Cid ، وأكثر الاحتمالات رجحاناً أن السيد حمل هذا اللقب في سن مبكرة من حياته، حين كان في خدمة المؤمن ملك سرقسطة، وبالتحديد في عام ١٠٦٣م، وله من العمر عشرون عاماً تقريباً، في ذلك الوقت خاض أول معركة حربية ضارية إلى جانب المؤمن ملك سرقسطة، ضد راميرو الأول ملك أرجون، وأبدى براعة حربية فائقة، وشجاعة متفوقة نادرة، فأصلق عليه جنود المؤمن لقب السيد، وثمة رواية أخرى غير ذات ثقة جاءت في « المدونة العامة » ومؤداها أن اللقب أطلق عليه بعد استيلائه على بلنسية، فحين دخلها ظافراً احتفل بالمناسبة مع جنده احتفالاً مهيباً، « ومن اليوم أصبح يدعى السيد El Cid ، سيدي mio Cid ، القنبيطور El Campeador صاحب بلنسية » وهو احتمال بعيد يعني أن اللقب جاء في أواخر حياته، لأن الاستيلاء على بلنسية جاء متأخراً نتيجاً لسلسلة من الانتصارات الحربية المتوالية، واتخذ طابعاً معادياً لأهلها، وعقب حصار عنيف، وإذلال مهين، وفيه تنكر السيد

لعهوده، وتراجع عن وعوده، فلم يكن ثمة ودّ أو تقدير أو إعجاب يدفع سكانها إلى تمجيده، وإضفاء لقب السيادة عليه، والجنّد الذين كانوا معه ليسوا جنّد يومهم، إنّما هم معه من زمن طويل، وشاركوه كل ما خاض من معارك، وحاز من انتصارات.

يكاد العلماء يجمعون على أن سيدي mio Cid هي صورة أندلسية للفظ سيدي في الفصحى، بمعنى مولاي، ثم نقلت إلى الإسبانية بهذه الصورة، ثم صار اللقب علماً عليه معرّفًا بالأداة El Cid غير أن ثمة شكاً كبيراً يراودني فيما يتصل بهذا التفسير، ومعناه أن اللقب أطلق عليه وهو في سن فتية، وكلمة سيّد من الكلمات التي ترتبط بالسنّ فيما هو مرعى من التقاليد العربية، فلا تقال إلا لمن بلغ مبلغ الرجال، حين تأق من حر ولو كان تابعاً، ولا تقال في أي سن إلا من الأذن، أو من الأرقاء قانوناً أو واقعاً، والجنود الذين أطلقوها على السيد لم يكونوا أرقاء له، ولا أذن منه سنّاً، وإنّما كانوا مجرد معجّين. ورسم الكلمة في القشتالية لا يجرى مع نطقها الأندلسي، فالأندلسيون ونستطيع أن نصور لهجتهم - إلى حد ما - في ضوء اللهجة المغربية، وعلى نحو أوضح وأدق في ضوء اللهجة الجزائرية، المنزلة وغير المتأثرة بالفرنسية، وبخاصة في الأمكنة المأهولة بمهاجرين أندلسيين، لا ينطقون كلمة سيّد cid إلا مضافة إلى الضمير، فيقولون سيدي cidi، فإذا أضافوها إلى غير الضمير حذفوا منها الحرف الأخير، أي الدال، تحفّفاً، فهم يقولون سي Ci، إما إذا لم تكن مضافة فنجرى على النحو العربي الفصيح، فيقال سيّد Sayyed، بقى أن نذكر أن المصنّفات التاريخية القشتالية القديمة، قليلاً ما تطلق لقب السيّد على الفارس الأندلسي، ولا نجد له ذكراً في المصادر العربية، إنّما اللقب الشائع الذي يطلق عليه عادة هو «القنيطور». ولا تعرف هذه الوثائق أيضاً كلمة سيّد Cid بمعنى سيّد، وما وجد في العصور المتأخرة من أسماء

إسبانية على صورة سيد، وإنما جاءت تقليداً للقب الذي عُرف به لذريق، دون أن يقع في خاطر من أطلقوه، أو ينادون به، المعنى الذي يرمز إليه، إنما تستخدم هذه الوثائق كلمة سيدي مرسومة في هذه الصورة Cidi حين يراد منها معنى السيادة صفة، أو علماً منقولاً، ونجد في ملحمة السيد نفسها كلتا الكلمتين، كلمة السيد El Cid، أو سيدي mio Cid علماً عليه، وكلمة سيدي Sedi صفة تسبق العلم.

أما الذي أراه فهو أن كلمة السيد التي أطلقت على لذريق، ليست تطوراً صوتياً لكلمة سيّد، وإنما هي كلمة أصيلة وقديمة لم يدخل عليها أى تحوير، وتعنى الذئب، أو الأسد في بعض الإشارات، وقد جاءتنا بالمعنى الأون في شعر أبي دواد الإيادي، شاعر جاهلي من القرن الخامس الميلادي، يصف فرسه فيقول:

رفيع المعدّ، كسيد الغضا تمم الضلوع بجوفٍ رحب^(١)

وقد يراد بها حين إطلاقها على لذريق كلا المعنيين، فقد كان له من صفات الأسد والذئب نصيب، واتخاذ كلمة السيد بمعنى الذئب علماً أمر كان شائعاً في الأندلس، في الجانيين الإسلامي والمسيحي، في اللغتين العربية والرومانثية. فلدينا في العربية مثلاً ابن السيد البطليوسى، العالم اللغوى الفيلسوف، المتوفى عام ١٠٥٢م، وتكثر كلمة لويث Lopez في القشتالية، ومعناها ابن الذئب، مشتقة من كلمة لوبو Lupo ومعناها الذئب. وإذا كانت كلمة السيد، بمعنى الذئب، قد أطلقت على لذريق، وشاعت من بعده اسماً لشخصيات عديدة، مراعى فيها المعنى الأصلي أو تيمناً بلذريق، فإن كلمة Luobo أو Lupo القشتالية دخلت العربية الأندلسية، وأصبحت تطلق اسماً، في

(١) المعد: الجنب. السيد: الذئب. راجع القصيدة في كتابنا: امرؤ القيس: حياته وشعره،

صورة مكبرة، ولدينا عدد من الشخصيات يحملون هذا الاسم، أشهرهم أسرة بنى لُبون Lobon أو Lupon ، وكان لهم دور في حياة بنسبة السياسية، وما جاورها من مدن وإمارات في الفترة التي سبقت دخول السيد المدينة. ولدينا أيضاً من بنى قسى سادة الثغر الأعلى، محمد بن لُب، وكان مسلمو الأندلس وهم يطلقون هذا الاسم يعرفون ما يعنيه في اللغة الرومانية، يقول المقرئ في «نفع الطيب»: «وها - أى الأندلس - سبع يُعرف باللب، أكبر بقليل من الذئب، في نهاية القحة، قد يفترس الرجل إذا كان جائعاً».



أما لقب القنبيطور فأقدم من لقب السيد، وعرف له منذ بدء حياته السياسية، فعندما توفي فرناندو الأول ملك قشتالة عام ١٠٦٥م، وقُسمت مملكته بين أولاده الأربعة، وأصبحت قشتالة من نصيب شائجه الثاني، كان أول ما فعل أنه عين ربيبه لذريق فارسا، أو قائداً للجيش الملكي بلغة العصر الحديث، وأتيحت الفرصة سريعاً للذريق كى يدافع عن المصالح القشتالية عند حدوث الخلاف بين مملكتي نبرة وقشتالة، وكان الطريق إلى إهانته إما تحاكم قضائى، أو مبارزة حرية، طبقاً لتقاليد العصر. وكان على السيد، فارس الجيش القشتالى، أن يدخل في مبارزة مع فارس الجيش النبرى، خمينسو جريثيس، وانتصر عليه. حينئذ أطلق عليه اسم Campi doctor. وتُنطق في اللهجة الرومانية قنبيطور Campeador أى الذى انتصر في ساحة المعركة، غير أن هذا اللقب أصبح ينصرف أول ما يطلق إلى رودريجو دياث دى بيار.

ويرد في المصادر العربية على صور مختلفة، ولكنها متقاربة، فنجد كلمات قنبيطور، وقبيطور، ثم الكنبيطور، وهي أقربها إلى اللهجة الرومانية نطقاً،

ونجدها عند ابن بسام في كتابه الذخيرة، وكان معاصراً للسيد^(١).

التفسير الذي قدمناه للقب هو أحدث التفاسير، وصاحبه لويس دي بلديا بيانو الأستاذ في كلية الآداب بجامعة مدريد، والحجة في تاريخ إسبانيا في العصر الوسيط، وأورده في القسم الثاني، من الجزء الأول من كتابه «تاريخ إسبانيا»^(٢). غير أن الأمر ليس بالبساطة التي تبدو للوهلة الأولى، فقد أثار اللقب كثيراً من المشاكل، ودار حوله العديد من الدراسات.

كان خوان فرانسيسكو مسديو (١٧٤٠-١٨١٧م) أول من أثار المشكلة في كتابه الممتاز «التاريخ النقدي لإسبانيا والحضارة الإسبانية»، وقد رأى أن هذا اللقب لا يوجد في مؤلفات ما قبل القرن الثالث عشر، ولا يعني تمجيد صاحبه، وكل ما يفهم منه أنه يطلق على شخص يُكثر من الإغارة على بلد عدو، فصاحبه مجرد قائد لمجموعة خفيفة من الفرسان وليس جنرالاً، أي أن كلمة قنبيطور لا تعني أكثر من مجرد جندي مغامر ومقدام، ولكنه لا يعرف كيف يقود الحرب بطريقة عالمه، وفي سلم العاملين في جهاز الحرب، هو في أدنى درجات الموظفين. وإذا كانت وجهة نظر العالم الإسباني مقبولة فيما يتصل بالتفسير إلا أن لنا ملاحظة عليها فيما يتصل بتاريخ استخدام الكلمة، فهي أقدم من التاريخ الذي حدده بدءاً لوجودها في المصادر، فنحن نجدها في كتاب ابن بسام الشنتري، وقد أشرنا إليه من قبل، وهو من مؤرخي الأدب الأندلسي في القرن الحادي عشر، غير أن اكتشاف مؤلفه والإفادة منه جاء

(١) انظر دراستنا لابن بسام وكتابه الذخيرة، في كتابنا: «دراسة في مصادر الأدب»، الطبعة السادسة دار المعارف بمصر ١٩٨٣.

(٢) L. de Valdeavellano: Historia de España, Tomo I. Segunda parte, p. 312, 2ª edición, Madrid 1955.

متأخراً للغاية، في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن، ومن ثم فهي هفوة لا تحسب عليه في مجال البحث والتدقيق.

ويرى هوير M.Huber أكثر الكتاب تعقلا، أن الأمر معقد، ومن الصعوبة بمكان أن يدل في المرء برأى قاطع. غير أنه يصرح، من جانب آخر، بأن كلمة قنبيطور Campeador لا صلة لها بكلمة Campus اللاتينية بمعنى بطل، وإنما هي مشتقة من الكلمة الجرمانية القديمة Champh بمعنى المبارزة، ومنها انتقلت إلى كافة اللغات الرومانية: الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والإسبانية، والفرنسالية، والقطلونية، وأخذت في كلِّ نبرا معينا، وهجاء مختلفا، بينما بقيت أصولها واحدة في الجميع.

وزيد دوزي الأمر توضيحا، فيرى أن الاعتقاد الشائع بأن كلمة قنبيطور Campeador مرادفة لكلمة Champion الفرنسية بمعنى بطل خاطئة، لأن كلمة Le Champion في العصور الوسطى تعني إنسانا يذهب من مكان إلى آخر ليؤجر خدماته في قتال مشروع، وهو يقاتل راجلا دائما، فلا يمتطي جوادا أبدا، ولا يستخدم من السلاح غير العصا والترس، ومهنته شائنة، لأن القانون يضعه في نفس المستوى الذي يضع فيه اللصوص والنساء العاهرات. ولقد كان الحق، بهذا الفهم، مع مسديو حين رأى أن كلمة القنبيطور لقب مهين.

ويرى دوزي في بحثه، وقد التقط الخيط من هوير، وفي ضوء تمكنه القوي من اللغة العربية، ومعلوماته الواسعة المنظمة عن الأندلس وتاريخه وأدبه، أنها تعني المنازل أو المبارز ومعانٍ أخرى. والمنازلة والمبارزة معنى استعاره المسيحيون من المسلمين الأندلسيون، فقد جرت عادة العرب من قبل، واحتذى بهم المسلمون فيما بعد، عندما يلتقي جيشان للقتال أن يقفوا صفوفاً أو خطوطاً أو كتلا مترابطة، ثم تبدأ المعركة بلقاء فردى يقوم به الأبطال

الممتازون، حين يتقدمون الصفوف، ويطلبون المبارزة، واحداً منفرداً، أو أكثر من واحد مجتمعين، ولا شيء يضع المرء في القمة، بطولية وشجاعة وإقداماً، كأن يدعو العدو إلى المبارزة، أو يقبل تحديّه، وحفظ لنا التاريخ الإسلامي عدداً من كبار المبارزين، مثل حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وعلى بن أبي طالب، وآخرين.

وأمسك **دوذي**، في ذكاء، برواية أوردها المؤرخ الأندلسي العظيم، أبو بكر محمد بن الوليد، الملقب بالطرطوشي، نسبة إلى بلده طرطوشة في مقاطعة سرقسطة، في مؤلفه «سراج الملوك» عن السياسة ونظم الحكم، وكتبه خلال إقامته في مصر، وأهداه إلى أميرها المأمون البطائحى، وتوفى في الاسكندرية عام ٥٢٠هـ = ١١٢٦م، أى أنه يعتبر على نحو ما معاصراً للسيد. يقول : «كان بسرقسطة فارس يقال له **ابن فتحون**، وكان يناسبني فيقع خال والدق، وكان أشجع العرب والعجم، وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك، ويعظمه. وكان يجرى عليه في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه، وهابت لقاءه؛ فيحكى أن الرومى إذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له : اشرب؛ هل ابن فتحون رأيت في الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، ومنزلته من السلطان، فأوغروا به صدر المستعين، فنعه أياماً. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عالج إلى وسط الميدان ينادى : هل من مبارز؟ فخرج إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى، وصلاح الكفار سرورا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الرومى يكرّ بين الصفين وينادى : هل من اثنين لواحد، فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومى، وصلاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول : ثلاثة لواحد، فلم يستجرىء أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقى الناس في حيرة. فقبل للسلطان : ما لها إلا **أبو الوليد بن فتحون**، فدعاه وتلطف به، وقال له :

أما ترى ما يصنع هذا العليج ؟ . فقال : هو بعيني . قال : لها الحيلة ؟ قال أبو الوليد : فإذا تريد ؟ . قال : اكفف المسلمين شره . فقال : الساعة يكون إن شاء الله تعالى . فلبس قبض كنان ، واستوى على سرجه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطاً طويل الطرف ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه ، فعجب منه النصراني ، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون ، وإذا بابن فتحون متعلق برقبة الفرس ، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج ، ثم طفر على سرجه ، وحمل عليه ، وضربه بالسوط في عنقه ، فالتوى على عنقه ، فجذبه بيده من السرج ، فاقتلعه من سرجه ، وجاء به يجره فألقاه بين يدي المستعين ، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه معه ، فأكرمه ورده إلى أحسن أحواله .»

فالمبارز المسلم ، وهو ابن فتحون داخل جيش المستعين ملك سرقسطة ، يقابله المبارز المسيحي ، وهو لذريق ديات دي بيبار داخل جيش شالجه الثاني ملك قشتالة ، إذن فكلمة قنيطور Campeador تساوي تماماً كلمة مبارز العربية ، وهو معنى يدعّمه أن اللقب أطلق على السيد في مبارزة له مع فارس نبرى ، كما أشرنا إلى ذلك في البدء^(١) ويؤيد هذا الرأي أن المعجم الإسباني ، الصادر عن المجمع اللغوي الملكي ، يجعل لكلمة قنيطور معاني متعددة من بينها : « من يواجه التحدي وبرز إلى لقاء العدو في المعارك الحربية على الطريقة القديمة » ، أي المبارزة في مفهومها العربي .

أما المؤرخون العرب في العصور الوسطى فيفسرون القنيطور « بصاحب الفحص » أي قائد الغارات في السهول ، الخبير بالغزوات في أرض الأعداء ، وهو تفسير يرفضه مننديث بيدال ، وراه معيياً في حق السيد

(١) انظر ص ١٣٠ وما بعدها .

السيد إنساناً

آثرت أن أقول إنساناً لأن أريد أن أتحدث عنه في هذا الإطار، أى مجموعة من الفضائل والنقائص التفت في كيان واحد هو السيد، لم يكن ملاكاً مبرأ من العيوب، ولم يكن شيطاناً صيغ من شرور، وإنما كان فيه ما في البشر من خير وشر. وحديثنا عنه وصفى تقريرى، لا يستهدف الحكم عليه أو تقييم أخلاقه، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الفضيلة والرذيلة دقيقة جداً، متحركة وغير ثابتة، وما يكون في عصر فضيلة يكون في آخر قبحا لا يغتفر. وفي العصر الواحد ما يكون في لحظةٍ إنما فاصحا، يكون في غيرها خليقة عممودة، وإذن فلست مع الذين جعلوا من السيد مجرد قاطع طريق، متمرد خارج على القانون. ولست مع الذين يريدون أن يجعلوا منه بطلا قومياً، مفكراً، صاحب دعوة وطنية ورسالة، ولم يكن كذلك لا واقعا ولا تاريخيا. لقد حاولت، محايدا وموضوعيا، أن أكتب فيما مضى صفحات من تاريخه العام، أو السياسى إذا شئت الدقة، معرضا عما في الأساطير من مبالغات، ومتجاوزاً الآراء غير العلمية. وينفس الروح والمنهج : أحاول أن ألقى شيئا من الضوء على السيد الإنسان.

والمشكلة التى يواجهها الدارس لهذا الجانب من حياة السيد، أن السيد فى الملحمه غيره فى التاريخ، غيره فى الشعر، وأحدهم لا يحل مكان الآخر على نحو مفاجئٍ ومتميز، وإنما يكون الانتقال بين النماذج الثلاثة ناعما ومتدرجا، ولقد وقفت عند المصادر الثلاثة، لم أحتقر بدءا أى واحد منها، ويخيل إلى أن السيد فى الأشعار الشعبية أقرب الثلاثة إلى الحقيقة، نعم، ليست الحقيقة خالصة، ولا كاملة، ولا دائما، ولكنها الحقيقة على أى حال. لقد أصبح السيار بعد

نصف قرن من موته بطلا، بطلا شعبيا، كانت سيرته تقدم مادة طيبة، لخيال شعبي ساذج، لكى يصوغ منها الملحمة التى يريد، واستطاع هذا الخيال باتساعه وواقعيته أن يكون قريبا من عقول الناس وأذواقهم، وأن يضع التاريخ الحقيقى فى زوايا النسيان، وأصبح من العسير الآن، إن لم يكن مستحيلا، الفصل بين التاريخين.

كان السيد بطلا شعبيا، ولم يكن قوميا، لأن الوطنية لم تكن عرفت بعد، ولم تكن اللغة على أيامه تعرف كلمة تعبر عن هذا المعنى، والفارس فى الأندلس لم يكن يقاتل من أجل وطنه أو دينه، وإنما - مثل السيد - يقاتل من أجل الحصول على لقمة الخبز، وليس يهم بعدها أن يقاتل مع أمير مسيحي، أو تحت راية أمير مسلم، أو مستقلا حين يستشعر القوة والاستقلال عن هؤلاء. ولم يكن السيد وحده، من بين جيله، هو الذى سار فى هذا الطريق، وإنما سبقه وتابعه فيه كثيرون من الفرسان، ارتقوا إليها من عامة الشعب أو كانوا أصلا أمراء ونبلاء. فالكونت غرسية أوردونيث معاصر السيد وعدوه اللدود، والرجل الثانى فى بلاط ألفونسو السادس ملك قشتالة، انتقل إلى خدمة المرابطين، وقاتل تحت رايتهم بعد معركة سالتريس فى عام ١١٠٦م، وبعد ذلك بقرنين ونصف من الزمان كان الأمير دون خوان مانويل، صاحب كتاب حكايات «الكونت لوكارنو» يقاتل ضد ملكه مع قوات المسلمين. وكان مفهوم الفروسية فى العصور الوسطى فى بقية دول أوربا شيئا مختلفا عن هذا تماما، كان يعنى أن يكون الفارس مسيحيًا مخلصًا، يتعهد بالدفاع عن الكنيسة، وبالخضوع لها دوما، وأن يقاتل الكفرة بلا هوادة، ويؤدى جميع واجباته الإقطاعية، فيخلص النية لسيدّه، ويدافع عنه، وعن شرفه مهما كلفها الأمر، واختلاف الأمرين بقية أوربا والأندلس، يدعم ما أشرنا إليه قبلا، من أن الناس جميعا كانوا أندلسيين، مسلمين ومسيحيين، رغم فارق الدين.

كان السيد يعيش مثل عصره وفضائله، ومن تحميل الأمور فوق طاقتها أن نطالبه بمشاعر ومثل لم تعرفها الإنسانية إلا بعده بزمان طويل. كانت فضائل عصره في أوروبا حربية فحسب، وفي الأندلس حربية وعلمية، وحاز السيد الجانب الأول بأكمله وببز فيه. فهو محارب ممتاز، يعرف كيف يقاتل، على نحو لم يتأت لغير القليل من فرسان عصره، وتميز بالعنف والخشونة والقسوة، وظل حتى آخر يوم من حياته مغلقاً في وجه المشاعر الطرية، كان يدرك أنها بداية العفن عند الحكام والقادة، والخطوة الأولى في طريق سهل منزلق ممتع، ينتهي بصاحبه إلى الخراب والدمار. وفي أول حديث له مع أعيان بلنسية قال إنه لن يشغل عن مصالحهم بما كان يشغل به ملوكهم من قبل، من الموسيقى والشراب والنساء.

كان، دون ما شك، أقوى فرسان القرن الحادى عشر، اجتمع تحت لونه كل متمرّد على أميره، أو منفي من ملكه، أو غاضب على المجتمع، أو شغوف بالقتال، أو باحث عن لقمة العيش، من المسلمين والمسيحيين على امتداد الأندلس العريض، وهم جميعاً، والسيد على رأسهم، في خدمة من يدفع مقابلاً أكبر، يستوى في ذلك أن يكون الطلب من أمير مسلم أو أمير مسيحي، وهم يقاتلون دفاعاً عن الإسلام بنفس الحماسة التي يقاتلون بها دفاعاً عن المسيحية، الشيء الوحيد الذي يهمهم المراتب التي يقبضونها والنهب الذي يقومون به، وانتهى به الأمر قائداً مستقلاً يقاتل لحسابه، ويقف ضد كل من في الأندلس، ويتحرك بوحى من مصالحه وحدها. رجل حرب يحلم دائماً بالمعارك والقتال، نبيل جاء إلى الحياة فقيراً فهو نهم إلى الثروة والمال، قائد متمرّد، بلا قلب ولا قانون، يدنس الكنائس، ويهدم المعابد، بحرق سجنائه أحياء، أو يمزقهم بالسواطير، قاس لا يرحم، ولقد خرب بأشد طرق التدمير فظاعة المقاطعة التي ولد فيها، ونسب إليها، وأمضى طفولته في قصور ملكها. وحياته

مزيج من التعقل والشجاعة، ومن الخداع والجرأة، صاحب حيلة لا يقف بها عند الحرب والقتال، وإنما يستخدمها في جمع المال، لقد احتال على يهوديين من برغش، فاقترض منها مبلغاً كبيراً، رهنها في مقابلة صندوقين مملوءين رملاً، وأوهمها أن بداخلها كل ثروته، وأمرها بالا يفتحاهما قبل عام، ولم يُعد إليهما ما اقترض منها أبداً لا تاريخاً، ولا في الملحمة.

يخون إذا اقضت مصلحته، ويخلف وعده إذا كان ذلك في صالحه، ويتراجع عن كلمته إذا كان العدول عنها يعني مزيداً من المال، وقد مكر بالفونسو السادس ملكه، ومكر بمسلمي سرقطة وعاش بينهم بمجده سبعة عشر عاماً متوالية، ومكر بكل الذين في شبه الجزيرة، وكانت الجواهر المطحونة بالفسدة من الحكام والطغاة من القادة، والمنحرفين من رجال الدين، تعجب به، وترى في تحركه ثاراً لمظالمها، ولا بأس بعد ذلك أن يكون قاسياً، مادام يثار لها ممن لا تستطيع منهم قصاصاً.

هل كان السيد في حياته كاثوليكيًا؟. أما أنه وُلد لأبورن كاثوليكيين فأمر لا شك فيه. وأما أنه كان كاثوليكيًا مؤمناً وطيباً ففيه شك كبير، فحتى العامين الأخيرين من حياته ليس في تصرفاته ما يوحي أبداً أنه يستهدى المثل المسيحية في مواقفه، ولا نجد شاهداً تاريخياً آخر يسمي بأنه كان ذا حية كاثوليكية، وقد بذل متنديث بيدال جهداً كبيراً في أن يجعل منه بطلاً إسبانياً قومياً وكاثوليكيًا، وأطلق اسمه على مرحلة من تاريخ الأندلس، أدار حول أحداثها مؤلفه «إسبانيا في عصر السيد»، ومع ذلك أهمل تماماً في كتابه عن «السيد القنبيطور»، وزعمه بالنصوص، ما كان منها تساريخياً شائباً، أو أسطورة مخترعة، وصية السيد عند موته، لأنها والرجل بين الحياة والموت، في اللحظة التي يتوب فيها الفاجر، ويؤمن الزنديق، لانتم عن أي نبض مسيحي، يقول :

« أنا لذريق بن بيبار المسمى بالسيد الشجاع القبيطور، المنتصر على الدول الإسلامية، وروحي تسلك طريقها إلى الله Dias لكي تستقر في ملكوته، ويدن ومن التراب خلق، إلى التراب يعود، أودّ بعد موق أن تحنطوني وأن تدهنون بالطيب، من العطور التي أرسلها إلى سلطان فارس، وعممولا على فرسي «بتيكا»، ومن خلقي رايتي وأعلامي، أظهرون للملك أبو بكر^(١)، ولكل المدافعين، وأمر بأن يدفن فرسي «بتيكا»، وألا تترك الكلاب تنشه، لطالما ضنّ بيدنه عن نهش الكلاب. وأود أن يحضر مشهد دفني النبلاء، وأولئك الذين قاسموني مائدتي، وأكلوا خبزتي، وكبار الفرسان^(٢). وصية لا تتبين أن صاحبها مسيحي، إذا لم تكن تعرف ذلك مسبقاً. وأي مسيحي؟ كاثوليكي من فجر العصر الوسيط!

لكن ذلك لا يحول دون القول، إن السيد في أواخر حياته، قريباً من موته، ضعف إنسانياً، ووقع في قضية دون خرونيمو، راهب فرنسي، ينتمي لطائفة Cluuy، وهي جماعة دينية فرنسية تسّرت إلى قشتالة عام ١٠٣٣، وتميّزت بالتعصب الديني الشديد، ولعبت دوراً في نقل الروح الصليبي إلى الأندلس، وكانت وراء الكثير من مآسي اضطهاد المسلمين، وقد عينه السيد مطراناً لبلنسية، بضغط من كبار رجال الطائفة في طليطلة، فانزع منه قراراً بتحويل مسجد بلنسية الجامع إلى كنيسة، ومساجد أخرى، رغم تعهد السيد للمسلمين من قبل بالألمس معابدهم أو شعائهم الدينية، واستهدها عددا من التحف والجواهر التي استولى عليها مما كان في أملاك القادر بن ذي النون

(١) يشير إلى أبي بكر سير بن يوسف بن تاشفين، قائد جيش المرابطين في الأندلس.

(٢) لم يتيسر لي النص في مصادره الأسبانية، فعرته عن ترجمته الفرنسية الواردة في كتاب (تاريخ

إسبانيا المسيحية) لمؤلفه Jean Descola.

وغيره من أثرياء المسلمين، وكان من بينها سجدتان شريقتان، من روائع السجّاد الشرقى، كانتا من قبل في قصر آل ذى النون في طليطلة، أيام أن كانوا ملوكاً عليها.



معلوماتنا عن الحياة الخاصة للسيد قليلة للغاية، أمر متوقع من محارب مغامر لا يكاد يستقر في مكان، غير أن أيامه في بلنسية كانت أكثر هدوءاً من غيرها، لتقدم سنه، وللأمراض التي تعاورته، والجراح التي تركت آثارها فلم تبرا تماماً، ولللهزائم التي بدأت تلوح في أفق حياته، وإحساسه بأن بساط المجد بدأ ينكش تحت قدميه، ولا كتشاب داخل أحس معه أن أيامه على وشك الغيب، فأخذ إلى الراحة، وبدأ يأخذ بمحظته من الحياة الاجتماعية، إنساناً غير عادى، يتصرف كملك متوج، يجلس للقاء الوفود، وتنشد بين يديه قصائد المديح.

حينئذ بدأ يجمع إلى جواره رفاقه في رحلة الحياة العنيفة والمريرة فاستقدم أسرته، زوجته وبنتيه، من قشتالة، وابن أخيه البار هانبيث ومونيو جوستيوس عديله، فقد كان متزوجاً من أخت دونيا خمينا، وآخرون من كبار القواد، ترتفع بهم الوثائق إلى ثمانية وعشرين، وتقف بهم الملحمة عند أربعة وعشرين، وهى دقة توحى بأن الملحمة أقدم بكثير مما يذهب إليه الدارسون^(١)، وأنها كتبت إن لم تكن في أيام السيد الأخيرة فبعدها مباشرة دون تأخير طويل. وكان بلاط السيد أندلسياً حقاً، فيه جند مسلمون ومسيحيون، من كل أنحاء شبه الجزيرة، وفيه قادة كبار من ممالكها المختلفة، من قشتالة وليون، وأرجون، ولقد صممت الملحمة تماماً عن أصدقائه من المسلمين فلم تذكر غير واحد هو

(١) انظر الفصل الخامس بقصة للملحمة ص ٦٢ وما بعدها.

ابن غلبون ، صديق السيد الحميم وحاكم مدينة مولينا Molina . وأغفلت الدراسات الحديثة، وأبحاث مننديث بيدال بوجه خاص، الحديث عمن كانوا في بلاطه من المسلمين. أما الملحمة فلأن شاعرها مسيحي كان ينشدها مسيحيين، أو مسلمين مُستَغَلِّين في أرض مسيحية، وربما كانت تنشد في الجانب الإسلامي على نحو آخر، وفي صورة أخرى لم تُسجل. وأما المحدثون فللايماء بأن السيد كان بطلا قومياً مسيحياً حقاً، وليس ذلك بصحيح، فنحن نعرف من سير الأحداث، ومن إشارات، «مدونة تاريخ إسبانيا العام»، أن بعض المقربين إلى السيد ومن حوله من كبار مستشاريه كانوا مسلمين. كان بين عبدوس مسلماً، ويتمتع باحترام مسلمي بلنسية والسيد على السواء، وكان مشرفاً على الضرائب، وعندما تفاوض السيد على دخول المدينة، كان من جملة شروطه أن يبقى ابن عبدوس في منصبه. وكان هناك ابن الفرج ممثله في بلنسية قبل أن يدخلها فاتحاً، وحين كان يقبض الجزية من أميرها القادر بن ذى النون. وكان السيد على صلة طيبة بالقاضي أبي الوليد الوقشي، واختاره قاضياً لمدينة بلنسية، يستشيريه ويسمع منه، في كل ما يتصل بأمر المسلمين.

لم يكن السيد صاحب مشاعر رقيقة، ولم ينبض قلبه بالحب أبداً، وكان زواجه ثمرة مصلحة سياسية، وفرض عليه، ولم يكن وليد عاطفة إنسانية، ودفع داخله، فلا عجب أن بقيت زوجه لسنوات طويلة بعيدة عنه في قشتالة، وكان هو مشغولاً عنها بمغامراته الحربية، ولم يعيش إلى جانبها إلا فترات قصيرة، أطولها أيامه الأخيرة في بلنسية، مريضاً منهكاً، ولم تتجاوز أربعة أعوام، ولم يرزق منها بغير ولد واحد، مات قتيلاً في إحدى المعارك، وفتاتين. كذلك لم تكن دونيا خمينا زوجه، وهي ترجو الملك أن يتفضل فمختار لها لذريق زوجها تعبر عن

إعجاب رومانسى، وإنما لجأت إليه لتدفع حرباً أهلية توشك أن تمزق قومها، لم تكن تحب لذريق، ولربما فكرت أنه سيعرف يوماً الدافع الذى حملها على الزواج منه، والإخلاص الذى تكنه له، فتقوى العلاقة بينهما، وتمزق أستار الوحشة.

وليست لدينا معلومات دقيقة عن الثروات التى خلفها السيد أو عن الجواهر الثمينة التى حازها من القادر، أو ابتزها من سكان بلنسية، طواعية أو بالتعذيب والإحراق، وأثنى ما يملك منها أسورة نادرة، جوهرة ذات صناعة بدیعة فريدة، كانت تخص زبيدة زوج هارون الرشيد، هكذا يقال، وظلت عبر ثمانية قرون، من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر، حديث الناس فى الشرق والغرب، وعلى جانبي البحر الأبيض، وانتقلت من بغداد العباسيين إلى بلاط الأمويين فى قرطبة، ومن قرطبة إلى بنى ذى النون فى طليطة، واستقرت أخيراً فى يد القادر، فحملها إلى بلنسية، مع بقية ثروته وجواهره، وكان بنو ذى النون من أغنى أمراء الأندلس. فلما تقاسم السيد وجنوده الغنائم، عندما دخلوا بلنسية متصرين، جعلوا ثروة القادر بما فيها من تحف وحلى من نصيب السيد، وهكذا انتهى المطاف بأسورة سلطنة بغداد لتكون الحلية المفضلة لدونيا خينا زوج السيد، فى بلنسية أولاً، ثم فى قشتالة من بعد، حين فارقت المدينة مكرهة أمام حصار المرابطين.

كانت هذه الجواهر كثيرة، وتتبع التاريخ سيرها إلى ما بعد موت السيد بأربعة قرون، ففى عام ١٤٥٣م انتهب خوان الثانى ملك قشتالة فرصة اغتيال القائم على أموال مملكته، فاتهم قائده ألبار دى لونا، وكان فى البدء من أقرب الناس إليه، وبلغ قدراً كبيراً من النفوذ والسلطة، وصار أقوى وأغنى رجل فى الأندلس دون منازع، فى الأندلس الإسلامى والمسيحى على السواء،

فأثارت قوته غيرة الملك، فانتهر هذه المناسبة، وتخلص منه بالإعدام. وكما كان السيد نهما إلى المال، كذلك كان خوان الثانى، فصادر أموال ألبار دى لوبا وتتبع كل ثرواته الخفية، وخزائنه السرية، وفي أشدها خفاء، وأبعدها عن الأعين، ظهرت جواهر ملوك قشتالة القدامى، ومن بينها حزام نسانى من الذهب الخالص، المزخرف بالماس، والأحجار الثمينة، من أملاك السيد، ويعتقد بعض المؤرخين أيضاً أنه بعض جواهر زبيدة زوج الرشيد. وهذا الحزام سيظهر فيما بعد، تتمنطق به إيزابيل، بنت خوان الثانى، والتي ستدخل التاريخ بوصفها ملكة على يدها، مع زوجها فرناندو، وضعت الكاثوليكية حداً لإسلام الأندلس، حين دخلا معاً غرناطة فاتحين ومنتصرين في ٢ من يناير ١٤٩٢. وكانت إيزابيل مغرمة بالجواهر والحلى، غير أن أحداً لم يعد يسمع عنه بعد ذلك شيئاً، ويظن أن الملكة باعتها لتواجه بثمنه نفقات الحرب التي اضطلمت بها ضد المسلمين، وذهب إلى حيث لم يعد يهتم به التاريخ أو يتحدث عنه.



بعض ملامح التأثير العربى نلتقى بها في حياة السيد، كان يفرش أرض داره بالسجاد، أو الحصير، وهى عادة عيربية، انتقلت، إلى أوروبا خلال الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس، فقد كانوا في أوروبا يعلقون السجاد على الجدران فحسب، أما السيد فيجمع بينها، يفرش الأرض، ويغضى الجدران، وخلال حكمه لبلنسية تعود أن يلتقى بأعيان المدينة، جالساً على منصة، فُرشت أرضها بالسجاد والحصير، وهو في قصره يستمع إلى الشعراء في اللغة العربية الفصحى، أو في عامية أهل الأندلس، أو في الرومانثية، ولا أظنه كان يعرف من اللاتينية غير القليل، فقد أصبحت على أيامه لغة ميتة، لا يفهمها إلا رجال

الدين، وغير المتخصصين منهم لا يعرفون إلا ما يتصل بالصلوات والمواعظ، يلقونها على جمهور يزر رأسه خاشعاً، ويتابع صلواتهم مؤمناً، ولكن دون أن يعي جيداً ما يقولون.

لم يلتفت المؤرخون المسلمون، وهم الذين أوردوا لنا نقفاً من أخباره يمكن أن تعد تاريخاً، كابن بسام، وابن علقمة، إلى غير الجانب الحرير والعسكري من حياة السيد، غير جملة جاءت عرضاً في حديث ابن بسام، ولكنها ذات دلالة هامة، فهو يروي أن السيد كان يجلس فيستمع إلى قصص العرب، ويعجب من بينها بسيرة المهلب بن أبي صفرة ويضطرب لسماها ويضطرب، وهو أمر طبيعي، فقد كان في حياة المهلب، ومنهجه في الحرب، وتخطيطه للقتال ما يتفق وأفكار السيد. وأتصور أن إقباله على الثقافة العربية أو الإسلامية، وضعها تحت أى اسم شئت، أوضح مما يشير إليه المؤرخون، فقد كانت الثقافة العربية على أيامه أرق بكثير جداً من المسيحية، وقد تعود معاصره بدور الأول ملك أرجون أن يوقع أوامره بالعربية زهواً وافتخاراً. ولقد أمضى السيد سبعة عشر عاماً كاملة ومتواصلة في خدمة أمير مسلم، وجانب كبير من جنده، يتجاوز النصف أحياناً، كانوا مسلمين، وكانت سرقسطة حيث عاش مركزاً حضارياً عربياً، وبلاط بيتي هود أصدقائه عامر بالشعراء، والأدباء، قادمين أو وافدين، وأمراؤه يقرضون الشعر، ولم تكن بلنسية أقل إشعاعاً من سرقسطة، إن لم تزد، والوقشي قاضيه على المدينة، ومستشاره لشئون المسلمين، كان شاعراً وفيلسوفاً ولغوياً، إلى جانب اتهامات فكرية أخرى بعدها له أصحاب المعاجم والترجمات، وكان القادر حليفه حيناً، ومحميه حيناً آخر، مغرمًا بالكتب واقتنائها، ويملك مكتبة من كبريات ما في الأندلس من مكتبات، ورثها من آبائه، وأضاف إليها ما أمكنه، وكان من بين ما أضاف

إليها شراء مكتبة المؤرخ الأندلسي الكبير ابن حيان، وجاءت في ثلاثة وأربعين صندوقاً. فهل يحق لنا أن نتصور أن حياة الرجل كانت في الجانب الأرحم منها عربية التقاليد إسلامية السمات؟

غير أننا يجب ألا ننسى أن اتهامات السيد بالشعراء جاءت في أواخر حياته حاكماً على بلنسية، ومخيل إلى أنه كان يضطلع بها استجابة لمراسم منصبه، حين جلس على عرش ملك مسلم، كان من بين مهامه الأولى أن يغذى هوية الناس للفنون والآداب وشتى مظاهر الجمال، ويعطى المثل من حياته، يلقى الشعراء، ويغدق عليهم العطايا، ويقتني الكتب، وينمى صناعة الكتاب. غير أن المؤرخ الإسباني مسنديو يذهب إلى أن السيد مجرد مغناور almogaver جاهل أمة، مهمته أن يغير وأن ينهب، دون أن يفكر في الثقافة والفنون والإقبال عليهما. وهو أمر لا يمكن قبوله على إطلاقه، والذي أدى إليه أن المؤرخ الإسباني كان يجهل العربية، فلم يستطع أن يستفيد بما فيها من مصادر تلقى الضوء الكثير على حياة السيد، غير أننا من جانب آخر نرفض الفكرة المقابلة والمتطرفة، والتي تجعل من السيد ليس مثقفاً فحسب، بل وعالمًا متمكناً من القانون القوطي. والرأى الذي نرتضيه هو مفهوم رواية ابن بسام، فقد أشار إلى أن الرجل كان يقبل على الثقافة العربية ما اتصل منها بسير الأبطال وقصصهم، إذ كان يرى نفسه في حياتهم، وخططه صورة من نشاطهم، وانتصاره شبيها بانتصاراتهم، دون أن يذهب إلى أبعد من هذا، فيجعل منه «ابن عباد» آخر.



أما الملحمة فتقدم لنا السيد في صورة مغايرة، تتفق مع التاريخ في أنه مخادع وماكر، ويقاتل من أجل لقمة الخبز، ويؤمن بالعرافة، وفيما عدا ذلك

تقدم لنا شخصاً مختلفاً تماماً. فهو مسيحي طيب عند كل موقف صعب، ويتوجه بالدعاء الحار للخالق بعد كل نصر، يعفو وينسب فعله للحماية الإلهية، يألم لنفسه من وطنه، فيظهر له جبريل في الأحلام، يواسيه ويشره بمستقبل سعيد. ويخدم ملكه بإخلاص كامل، وظلمه ألفونسو السادس عندما نفاه، وكان هذا رأى سكان برغش كبرى مدن قشتالة على الأقل، وقد صاحوا به عندما مرّ بمدينتهم. «يا الله!... ألا تعطى هذا التابع الطيب سيّداً صالحاً» غير أن السيد إبقاء على مكانة الملك، لا يتهم ألفونسو، ولا يخوض في سيرته، وإنما ينسب ما وقع له إلى الحاشية، إنها وحدها السبب فيما يعرض له من مصاعب. ودائماً يحاول أن يخفف من غضب الملك عليه، وعندما علم أن ألفونسو تحرّك لكي ينتزع منه فتوحاته تخلى عنها، لأنه لا يرغب في القتال ضد سيده، وإذا استحوذ على غنائم في القتال، بادر فأرسل إلى الملك بهدية كبيرة منها. وعندما التقى الملك معه استقبله ضارعاً، وسجد أمامه، وأخذ العشب بأسنانه، وفاضت دموعه فرحاً.

وهو بين جنوده، وبين أعدائه، مثال للطيبة والكرم، فإذا استولى على قلعة وأراد أن يتركها جاءه سكانها المسلمون باكين، يرجونه أن يسبق، أو يرافقونه حيث يذهب. وعندما خلف وراءه مسقط رأسه متقيّاً، تاركاً داره وأسرته، بكى المأ. والسيد في اللحمة أب وديع وحنون، يسأل دائماً عن زوجته، وعن بنتيه دونيا أكبر أو أودونيا سول، وحول زواجهما يدور موضوع اللحمة الرئيسي. وعندما نقلوا إليه في بلنسية رغبة الملك في أن يزوّج بنته من أميرى «كاربون» أحسن بالثقة في نفسه، وصلاح: إننى مجرد منق، استولوا على أملاكى، وما معى الآن رجته بالجهد والتعب، شكراً يا إلهى، لقد رضى عنى الملك أخيراً. ومع أن الأميرين من طبقة النبلاء، ويتمتعان بنفوذ كبيرة في بلاط

الملك، كره السيد زواجهما من بتيه، لأنها لا يستطيعان أن يحققا هما السعادة، غير أنه لا يعارض، خضوعاً لرغبة الملك، فليس له إزاء رغبة عاهله كلمة.

لقد طلب أميراً «كاربون» يدى بنى السيد، البيرا وسول، طمعا في ثروتها، فقد كان أبوهما بعد ما حاز من غنائم يعد من كبار الأغنياء، وكانا تافهين ومزهوئين، وقاسيين وجبانين، وكان جينها بإزاء أسد انطلق من مريضه في حديقة قصر السيد فى بلنسية، موضع التهكم والسخرية، ولما ضاقا ذرعاً بما يوجه إليهما، أصرا أن يتقما من السيد فى شخص بتيه، فرغبا إليه فى العودة إلى «كاربون» مع زوجتيهما، والأموال الهائلة التى أصابهاها، وصحبها قريب للسيد يدعى فليث منيوث. وفى «مولينا» استقبلها ابن غلبون، مسلم حليف وصديق للسيد، فى حفاوة بالغة، ولما عرفا ما يملك من ثروة، بيتاً النية على قتله، والاستيلاء على خزائنه، لكن مسلما يعرف الرومانشية فهم ما يتبادلان من قول، وأعلم سيده، فاتمها ابن غلبون بالخيانة، ثم تركها يذهبان، دون أن يعاقبها بما يستحقان إكراماً للسيد. وعندما وصلوا إلى غابات «كورريس»، نفذ الأميران خطة شائنة، خططا لها فى بلنسية قبل الرحيل. فقد أمرا كل تابعيهم بالمسير فجراً، وبقياً وحدهما مع زوجتيهما، حينئذ بدأ يتقمان منها، فجردأهما من ملابسها، وضرباها بسبور المهاز حتى سال منها الدم، وتركاهما تعيستين لا تستطيعان الكلام، نهياً للنسور والحيوانات المفترسة. غير أن فليث منيوث لم يكن مطمئناً إلى مصير بنى عمه، فكمن وراء غيابة من الجبل، ولما رأى الأميرين قادمين وحدهما تركها يمران، وعاد إلى الغابة فوجد بنى عمه نصف ميتتين، فنادها باسميها، ففتحتا عيونها أخيراً، واستردتا عيها شيئاً فشيئاً، فسترها بعباءته، وحملها على حصانه، ونقلها إلى مكان مأمون.

وأخبر السيد بما حدث فصمت طويلا، وتأمل مستغرقاً، ورفع يده، ثم أمسك بلحيته وشكر المسيح سيد العالم وأقسم بحق لحيته التي لم يمسه مخلوق: « إن أميري كاربون لن ينعم بما فعلا طويلا، وسأزوج بنتي زواجا كريما » ولقد تحقق له عمله، فزوج إحداهما من أمير نبرة، والأخرى من أمير أرجون.

وضع السيد التاريخي تماما في ضباب الأسطورة، وأصبح قديسا وبدأ الجنود عند الحرب يتبركون بقطع يحملونها من تابوته، تحميم من الهزيمة، وتجلب لهم النصر، وتقدم فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا، وأشدهم تعصبا، بطلب إلى البابا في الفاتيكان أن يضيف السيد إلى قائمة القديسين؛ ورفض البابا. لقد أراق صاحب هذا السيف دماء غزيرة، ولم يكن منظر أكاليل القديسين يقع منه موقع الرضا، ولم يكن صوفيا ولا زاهداً، بل « وكان مسلما بقدر ما هو مسيحي، ولا يزال حتى اليوم، داخل قبره مسيحيا يحمل ملابس عربية ».

ولم يعجب قرار البابا فيليب الثاني، فسحب سفيره من روما احتجاجاً والحق أن السيد لو عاش على أيام فيليب الثاني، لفضت عليه محاكم التفتيش بالموت حرقاً، بتهمة الإلحاد أو تننيس المقدمات.

سيظل السيد سجين الخيال الشعبي، في منتصف الطريق بين الحقيقة والأسطورة، وسيق هذا الجندي الأجير الذي صنع لنفسه بسيفه ملكاً، المسيحي الذي يقاتل لصالح المسلمين، شاهد صدق على طبيعة الأندلس كما ألقنا إليها في المقدمة والتمهيد، ودليلا على ما كان بين المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة من تسامح وتآخ، حين تنأى عنهم أطباع الحكاميين، وتخف قبضة رجال الدين.

شخصيات الملحمة

في البدء، وقد اختلط التاريخ بالأسطورة في الملحمة، كان يُظن أن الوقائع كلها، بما فيها شخصية السيد، عمل اخترعه خيال شاعر مجهول، وأنها لم تجر أحداثها على النحو الذي رُويت به أبدأ، ومع النهضة الحديثة، وتقدم وسائل الدرس، ونشر الكثير من المصادر الأندلسية، والعربية منها بوجه خاص، بدأت شخصية السيد تتضح، على نحو مخالف لما عليه في الملحمة، ولكن بطريقة لا تدع مجالاً للشك في أن الرجل وجد وعاش فعلاً، ثم تجاوزه الأمر إلى الشخصيات التي وردت في الملحمة، وباستثناء عدد قليل منها، ودوره ثانوي، فإن الكثرة الغالبة لشخصيات تاريخية، وجدت حقاً، وشاركت في أحداث عصرها سلباً أو إيجاباً. وسوف يساعد على تفهم أحداث الملحمة، ماهو حقيقى منها وما هو أسطوري، أن نتبع حياة الشخصيات التي تدور حولها الأحداث، في بساطة موجزة، بقدر ما تساعدنا عليه المصادر، دون أن نتجاوز كتب التاريخ إلى الملحمة نفسها، لأن تتبع نشاطهم فيها يمكن للقارئ أن يلتقطه من النص المترجم مباشرة.

● ألفونسو السادس Alfonso VI (1065-1109) ملك قشتالة، وهو

أوضح شخصيات الملحمة، فقد تحدّاه السيد على مرأى من مجمع الفرسان والنبلاء، حين اضطره أن يرّدّ القسم الخاص ببراءته من دم أخيه شالجه الثاني، وقد اغتيل بتدبير من أخته أراكه، ومن أخيه ألفونسو فيما يظن، قبل أن يرضى به القشتاليون ملكاً عليهم، وأسرها الملك في نفسه فلم يلبث أن نفي السيد من مملكته. ويعد ألفونسو من أعظم ملوك قشتالة، فقد جمع تحت

تاجه ممالك جليقية وأستورياش وليون وقشتالة، وكان يرمى إلى توحيد الأندلس المسيحي كله تحت لوائه.

وتجاوز نفوذه الأندلس المسيحي إلى الأندلس الإسلامي، فدفع له الجزية عدد من ملوك الطوائف الصغار، وارتبط تاريخه فتى بالصراع الإسلامي المسيحي، وبلغ ذروته في نهاية القرن الحادى عشر، وتعرفه المدونات العربية في جوانب متعددة من حياته. فحين هزم في موقعة جليخيرا عام ١٠٧٢م، أمام جيوش أخيه شانجه الثانى، وأسر في المعركة وسُجن، ثم أفرج عنه فيما بعد، لجأ إلى طليطلة الإسلامية، ونزل ضيفاً على المأمون بن ذى النون، فأحسن استقباله، وأعطاه سكناً فى القصر الملكى يشرف على حصون المدينة. وهو آمن فى حدائق القصر الواسعة، خلى من متاعب الحياة، كان همه أن يدرس جغرافية المدينة ومسالكتها، وأفضل الطرق للاستيلاء عليها، ولم يطل به التفكير، فقد ترامى إلى سمعه ذات يوم، وهو ينعم تحت ظل شجرة وارفة فى الحديقة، حديث يدور بين بعض القواد المسلمين عن المدينة ومنعتها، وأنها لا تهزم إلا أمام الجوع لأن ضرب الحصار حولها سهل، وليس لها من سبيل إلى العيش غير ما يحمل إليها مما حولها. ووعى ألفونسو الدرر جيداً، وبعد تسعة أشهر اغتيل أخوه شانجه الثانى، فى ٧ من أكتوبر ١٠٧٢، وهو يحاصر مدينة سمورة، فأرسلت إليه أخته أراكة تستدعيه لكى يصبح من جديد ملكاً على قشتالة، ويضم إليها ليون، وعدداً آخر من الممالك، وما لبث، حين واته الفرصة بعد ثلاثة عشر عاماً، أن طبق نظرية القواد المسلمين، فحاصر طليطلة فى قوة، وخرَّب ما حولها بقسوة، وسقطت فى يده من غير قتال.

وأدى سقوط طليطلة إلى عبور المرابطين مضيق جبل طارق لنجدة المسلمين. والتقوا بالجيوش المسيحية، وقد أخذت شكل حملة صليبية، شارك

فيها جنود مسيحيون من كل العالم الكاثوليكي إذ ذاك، بقيادة ألفونسو السادس، في مكان يعرف بالزلاقة، وبه شهرت المعركة، ودارت الهزيمة على الجيش المسيحي، وكان النصر للمرابطين، على نحو ما أئخنا إليه من قبل، ونتيجة لمعركة الزلاقة، استقر المرابطون في الأندلس، وخلعوا ملوك الطوائف واحداً وراء آخر، وقُتل في صدام معهم عند قرطبة حاكمها المأمون بن المعتمد بن عباد، ثم سيق أبوه ومن تبقى من أسرته أسارى إلى مراكش، فئا كان من زوج المأمون المقهورة من مصرع زوجها وإخوته وأسر أبيه، إلا أن لجأت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، فكانت له واحدة من زوجات خمس إلى جانب عدد من الخليلات والمحظيات على عادة ملوك شبه الجزيرة مسلمين ومسيحيين، وكان له منها الابن الوحيد، وقتل في مبيعة صباه، يقود جيش قشتالة في معركة ضد المرابطين تعرف بموقعة أقليش، وجرت في ٣٠ من مايو عام ١١٠٨، وكانت الدائرة فيها على المسيحيين.

● أبار هانيث Alvar Hanez ، ويكتب الحرف الأول من هانيث F في المصادر القشتالية القديمة و H في اللغة الإسبانية الحديثة، وهي تطور للغة القشتالية، والنطق واحد في كليهما. وتسميه المصادر العربية أبار هانس وهو أكثر شخصيات الملحمة ذكراً عند المؤرخين العرب.

ويظهر لأول مرة في وثائق أعوام ١٠٩٧-١١٠٧ القشتالية كحاكم لمدينة Zorita ، وكان واحداً من كبار الفرسان في بلاط ألفونسو السادس ، والتقى مع المرابطين في أكثر من معركة، وخلال حكم أراكة ابنة ألفونسو السادس عين حاكماً على طليطلة من ١١٠٩ إلى ١١١٤، وفي العام الأخير اغتاله أهل شيقوية، وهو يدافع عن حق الملكة، ضد أنصار الملك الأرجون ألفونسو المحارب. وتدعوه الملحمة ابن أخ السيد، وهي قرابة تؤكدها الوثائق

التاريخية. وتذكر أيضاً أنه كان ساعد السيد الأيمن، وإلى جانبه دائماً. والحق أن حياتها جرت متباعدة، ومن المؤكد أنه صحب السيد في نفيه، لأنه اسمه لا يظهر في وثائق القصر الملكي في قشتالة خلال أيام النفي، غير أنه يعود إلى الظهور مرة أخرى في أعوام ١٠٨٥-١٠٨٧، إذ عهد إليه ألفونسو بان يكون مع القوات التي تحت أمره في خدمة القادر بن ذي النون ملك بلنسية، بعد أن أزاحه عن عرش طليطلة، ثم يظهر في الوثائق الملكية بعد ذلك، في أعوام ١٠٩٠-١٠٩٥، حين كان السيد مشغولاً بالاستيلاء على بلنسية، ولقد أمضى ألبار هانييث أياماً مع عمه فيها، لكننا نجده في العام الذي توفي فيه السيد، أي عام ١٠٩٩، منفصلاً عنه، يقاتل المرابطين عند كونكة، ثم يخرج من المعركة مهزوماً.

أما في المصادر العربية فنجد له لأول مرة سفيراً لألفونسو، يحمل رسالة إلى المعتمد بن عباد، تنضح كبرياء وصلفاً، وينعت فيها ملك قشتالة نفسه بأنه «سيد الشعبين وأمام الملتين»، فأجاب المعتمد عليها برسالة أشد كبرياء واعتزازاً وعتفاً. لكن أمير إشبيلية، إزاء تردد المرابطين في العبور إلى الأندلس لدعم المسلمين، لم يجد بداً من دفع الجزية للملك ألفونسو. وكان مع ألبار هانييث يهودى بارع في شئون النقد يدعى ابن شاليب، مهمته أن ينقد المال الذي يدفعه المعتمد، فقد كان تزييف النقد، ودفعه في المغارم والجزية عملاً شائعاً، غير أن اليهودى بالغ في أداء مهمته، فعده ذلك وزراء المعتمد إهانة لهم، ورفضوا أن يسمحوا له بالاستمرار في عمله، وحاول ألبار هانييث أن يسوى الخلاف، فاقترح أن يقدم المعتمد سفناً حربية بدل المال المطلوب، لأنه مكلف بالأل يقبض أية دراهم أو دناتير دون تفحص ونقد وتحقيق.

وقد غضب المعتمد لهذه المعاملة من جانب السفير وخيره النقدي غضباً

شديداً، وتبالغ بعض الروايات العربية فتقول إنه بطش بالسفير، أو فقأ عينيه، وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار، وضرب اليهودى حتى غشى عليه ثم صُلب. وهى رواية غير دقيقة لأننا سوف نلتقى بعد الحادثة بالسفير ألبار هانييث، ولزمن طويل، فى أكثر من مكان. أما الرواية الوثيقة فتقول إن المعتمد أنب السفير، وكان يقيم فى خيام له بظاهر إشبيلية، ولم يعد أحد على حياته جرياً على سنن القانون الدولى، ولكن بعض جنود الصقالبة، وحاشية المعتمد، انسلوا إلى خيمة اليهودى، وربما بإيعاز من المعتمد نفسه، فقتلوه ومن كانوا معه. وعاد السفير إلى طليطلة يتوعد المعتمد بنقمة مولاه.

ونجده بعد ذلك فى رفقة القادر ملك بلنسية، يثبث عرشه ويدفع عنه السكان الثائرين عليه، وحكام القلاع المترصين به، ثم يرحل من هناك لينضم إلى جيوش ألفونسو الذاهبة لمقاتلة المرابطين فى موقعة الزلاقة الشهيرة، وأصبح ألبار هانييث قائد الجيوش المسيحية، وتتألف من جند قشتاليين، ومن أرجون، ومن متطوعة كاثوليك جاءوا من وراء الأندلس، وتقدر بعض الروايات العربية الجيش المسيحى بأنه كان فى ثمانين ألفاً، وقد مزقه المسلمون تماماً ولم ينج منه غير خمسمائة فارس، فرؤوا إلى طليطلة مع الملك ألفونسو، ومعظم الفارين كانوا متخنين بالجراح، فلم يصل حياً منهم غير مائة وكان ألبار هانييث من الناجين لأننا سوف نلتقى به حياً بعد عام ١٠٨٦، تاريخ المعركة؛ وسيجىء إلى إشبيلية مرة أخرى، ليقاتل فى هذه المرة مع المعتمد بن عباد ضد المرابطين؛ وقد انتصر المرابطون، وارتد القشتاليون، وأثخن ألبار هانييث فى هذه المرة جراحاً.

● بير، أو بدرو، أنسورث Per (Pedro) Anszrez من أكثر شخصيات

الملحمة ذكرا في النصوص المسيحية القديمة، فقد كان واحدا من النبلاء الكبار، وكان الشخصية الأولى في بلاط الملك ألفونسو، وعندما وقعت الحرب بين الأخوين ألفونسو ملك ليون، وشانجه ملك قشتالة، في « جليخيرا » قريبا من « كاربون »، قاتل الأخوان جنثالو و بدرو أنسورث إلى جانب الأول، وقاتل السيد إلى جانب الثانى، وانتهت الحرب بهزيمة ألفونسو ملك ليون، فلجأ إلى كنيسة المدينة، وتبعه شانجه ومعه السيد إلى هناك وأخذه أسيرا، ثم أطلق سراحه فيما بعد، لكى يذهب لاجئا سياسياً إلى بلاط بنى ذى النون فى طليطلة، وصحبه فى منفا الأخوان بدرو وجنثالو. وكان بدرو من حين لآخر يترك طليطلة سرا، ويذهب إلى سمورة، ليتقى بالملكة أراكه أخت الملكين، فيخطط معها لعودة ألفونسو إلى عرشه فى مدينة ليون وكان بدرو لفترة من حياته العشيق الرسمى للملكة أراكه، رغم أنها كانت متزوجة.

وتطلق الملحمة على جنثالو أنسورث، اسما آخر هو جنثالجو Gonzalvo أو الكونت جنثالجو، وهو والد أميرى كاريون ديبيجو وفرناندو، اللذين سيتزوجان بنتى السيد، الزواج الأول. وكانت الأسرة تتمتع بشهرة واسعة لأنها تنتمى إلى جومث دياث، وكان صهر كونت قشتالة الشهير فرنان جنثالث، وقائده وأصبح يطلق عليهم منذ القرن العاشر اسم بنى جومث Vanigomez ، وفى الإسبانية الحديثة Bani gomez، وبه شهرها فى المصادر العربية، وأصبح بدرو منذ عام ١٠٩٥ يحكم بلد الوليد، ومنطقة واسعة تمتد بين نهري إسلا وبسورجا، وتشمل مدن كاريون، وسمورة وسلدانيا، وليينا. وسفر بدرو لألفونسو، فكان سفيره إلى عبد الله بن بلقين ملك غرناطة لكى يقبض منه الجزية، فرفض ملك غرناطة أن يدفع له شيئا، ولكى

يعاقبه بدرو على رفضه، خرج مع رجاله وجيش المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وخرّبوا أراضي مملكة غرناطة.

وأَمِيرًا «كاربون» في الملحمة هما ابنا الكونت جتثالو وتم زواجهما من بنتي السيد بإشارة من الملك ألفونسو، وهما شخصيتان تاريخيتان، ويظهر اسمهما في الوثائق الملكية لقشتالة في أعوام ١٠٩٠-١١٠٩، مع لقب ابني الكونت، ومن حاشية الملك، غير أن الوثائق التاريخية لا تشير قط إلى قصة زواجهما، وزواج بنتي السيد من أمير نبرة وكونت برشلونة ثابت تاريخياً، لكن هذا لا يعني أن الزواج الأول لم يحدث، وكل ما هنالك أنه كان مخالفاً لقوانين الكنيسة، وكانت رقابتها على ما يكتب عنيفة فلم تسمح بتسجيله. وكان من الشائع في العصور الوسطى، داخل العالم الكاثوليكي، أن يتم الزواج الثاني، دون حاجة إلى طلاق ترفض الكنيسة في إصرار وعناد أن تقره أو توافق عليه، والمتصور هنا أن بنتي السيد تزوجنا من أميرى كاريون ثم فشل الزواج، فكان زواجهما الثاني برغم أن الزوجين الأولين أحياء، ولعل طلاقاً وقع على سنن المسلمين وتأثرا بهم، ذلك أن الملحمة، في معظمها، تدور أحداثها حول هذا الزواج وليس حول السيد وفتوحاته، فمن الصعب تصوّر أن القصة كلها خيال من صنع الشاعر، في ملحمة خطوطها الرئيسية أحداث تاريخية، أكدتها الوثائق والمدونات. ولعل الزواج تم في مرحلة كان والد الأميرين صديقاً للسيد، ففي عام ١٠٧٤ نجد توقيع الكونت جتثالو شاهداً على عقد زواج السيد من دونيا خمينا.

بقي أن نشير إلى أن الشاعر الذي صاغ الملحمة قشتالي أصلاً، فعواطفه مع الملك ألفونسو، وهواه مع السيد، ومن ثم فهو ينظر بعين العداء إلى نبلأ ليرن، وكانوا في الحزب المناهض للسيد، أما بعد أن زالت العداوة، واتحدت

المملكتان، قشتالة وليون، تحت عرش واحد، فقد أصبح اسم بدرو أنسورث موقراً، واحتفى كعدو للسيد، فيما أدخل على الملحمة من إصلاح، بل إنه نُحِيَ تماماً من الأصل الذي نسخ منه الملحمة بدرو أباد، المخطوطة الوحيدة التي وصلتنا شعراً، أما اسم جنثالو أنسورث، وكان مجهولاً من الشعراء، فبقى كما هو، ولم يحتج بالتأني إلى إصلاح.

● الكونت غرسية أوردونييث Garcia Ordonez، نجده في الوثائق حاكماً لمدينة نجرة منذ عام ١٠٧٧م، وعلى مدينة جرانيون في مقاطعة ريوخا منذ عام ١٠٩٤م، ويرد في الوثائق تحت اسم دون غرسية جرانيون ويُذكر في المصادر العربية مصحوباً بلقب «صاحب الفم الأعوج». وبدأ حياته صديقاً للسيد، وكان شاهد زواجه من دونيا خمينا عام ١٠٧٤، وبدأت العداوة بينهما، فيما يبدو، منذ التقيا مختلفين في معركة قريباً من قرطبة، عند حصن قبرة. وكان السيد في جانب المعتمد، والكونت غرسية في جانب المظفر ملك غرناطة، وانتصر فيها السيد، وأسر الكونت غرسية وسجنه، ثم أطلق سراحه فيما بعد؛ وأصبح يطلق عليه سخرية كونت قبرة. ولعب دوراً هاماً في بلاط ألفونسو السادس ضد السيد، وهو دور تشير إليه الملحمة، وغير موثق تاريخياً؛ إلا أن مثل هذا النشاط من الدس لا يدخل في نطاق التسجيل، ويمكن أن يتصور من الأحداث نفسها، فقد ظل غرسية لا ينسى للسيد أبداً أنه انتصر عليه، وأهانته وسجنه، وكان يتمتع بنفوذ كبير، وموطن ثقة الملك، فعهد إليه بتربية ولى العهد، وكان يقول عنه: «مجد مملكتنا العظمى»، وقد تحداه السيد للمرة الثانية، فهاجم مقاطعة ريوخا عام ١٠٩٢، وكانت تحت حكم الكونت غرسية. وشارك الكونت غرسية إلى جانب المسلمين في الحرب التي وقعت بين المستعدين صاحب سرقسطة وبين شانجه راميرث ملك

ارجون، حين حاول هذا الأخير أن يستولى على مدينة وشقة، ثانية مدن مملكة سرقسطة، فحارب الحصار حولها، ولم يستطع المستعين أن يواجهه منفرداً فاستصرخ ابن تاشفين أمير المرابطين، فأمدّه بجيش يتألف من ألف فارس، وستة آلاف راجل، وطلب عون ألفونسو ملك قشتالة، فأمدّه بفرقة من الجنود يقودها غرسية أوردونييث، وخلال الحصار توفي الملك شالجه، وتولى الملك بعده ابنه يدرو، فلم يقنع بالحصار، وأثر النزاع، فسار في قواته للملاقاة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في « الكرازة » الواقعة قرب وشقة، استمرت طوال يوم كامل، وبلغت خسائر الفريقين قدراً كبيراً، وهزم المسلمون أخيراً، بعد أن فقدوا هم وحلفاؤهم اثني عشر ألف قتيل، أو نحوها. وكان بين القتلى غرسية أوردونييث قائد الجنود القشتاليين. وتحدد المصادر المسيحية يوم ١٨ من نوفمبر عام ١٠٩٦ تاريخاً لهذه المعركة.

● **مَرْتِين مونيوث Martin Munoz**، كان فارساً وحكم مدينة منت ميور، وتقع الآن في البرتغال، وحمل لقب وزير *alguacil*، ثم عينه ألفونسو السادس كونت لمدينة قلمرية، وهي في البرتغال أيضاً، وظل في وظيفته هذه من عام ١٠٩١ إلى عام ١٠٩٤، حيث خلفه في منصبه الكونت دون رامون، كونت جليقية وصهر الملك، وربما تم إقصاؤه من منصبه في ظروف غير ودية، لأن اسمه سيختفى بعد ذلك من الوثائق الملكية، وكل ما نعرف عنه بعد ذلك أنه في نفس العام الذي عُزل فيه ذهب لينضم إلى السيد في بلنسية، غاضباً من الملك لإقصائه عن منصبه، وليس من السهل تصور أنه سحب السيد طوال أيامه، أو أنه كان معه عندما نفاه الملك. وسوف يظهر اسمه مرة أخرى، عام ١١١١م، عندما رحل من أرجون إلى قشتالة، لكي يجارب الملكة أزاكة، أرملة الكونت دون رامون، لصالح ألفونسو الأول ملك أرجون.

● دون إنريك Enrique، ودون رايونديو Raimundo، وينحدران من

أصول فرنسية، وينسبان إلى بورجونيا Borgona، وجرت عادة الفرسان الأمراء من جنوب فرنسا أن يهبطوا الأندلس المسيحي بحثاً عن زوجات أميرات، يصبحون معهن ملوك المستقبل، أو في الأقل من كبار الأغنياء. وهما ابنا عم، وتزوجا من بنتي ألفونسو السادس، أولهما، إنريك، تزوج من تيريزا، ابنة غير شرعية للملك من عشيقته خمينا، وتزوج الثاني، رايونديو، من الأميرة أراكة. وقد أصبحا بعد الزواج من الشخصيات الرئيسية في بلاط ملك قشتالة، وما لبث ألفونسو أن تنازل لرايمونديو عن الأراضي البرتغالية ليحكمها، وتكون خلفه من بعده، في نطاق التبعية لملك قشتالة، وأخذت المنطقة التي يحكمها تتسع، فضم إليها جليقية، وسمورة، وعين رايونديو ابن عمه إنريك حاكماً على مقاطعة قلمرية، غير أن أطماع الأميرين كانت كبيرة، فلم يقنعا بهذه المنطقة، كانا يجلمان بأن يخلفا ألفونسو السادس على كل مملكته الواسعة، وفعلاً كان من المقرر أن يكون رايونديو وارثاً للعرش، فلما رزق ألفونسو بابنه شامجه، من الأميرة سيّدة^(١)، أبعده رايونديو، لأنه كان يضيق بزهوّه، ولا يرتاح إليه. ثم توالى الحوادث، وكانت أكبر منهما، فلم يعد يحسّ بها أحد، غير أن حكمهما لمنطقة البرتغال، كان اللبنة الأولى في انفصال هذا الجانب من الأندلس المسيحي، ليصبح فيما بعد دولة مستقلة تحمل اسم البرتغال.

(١) انظر صفحة ١٥١ من هذا الكتاب. والإشارة الوحيدة في المصادر العربية لهذه القصة، وردت في مصدرين فقط فيما أعلم: البيان المغرب لابن عذارى، ج ٤ ص ٥٠، وقصوى لأبي العباس أحمد بن يحيى النوشري من علماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكلاهما لم يذكر اسمها، ولكنه ورد في المدونات الإسبانية على الصورة التالية Zaida، ودرج المؤرخون العرب، متابعة للأستاذ محمد عبد الله عنان، في رسمه بالعربية (زائدة)، وفي ضوء دراستي له، وفي ضوء الصوريات الإسبانية اعتقد أنه (سيّدة).

● الكونت دون فرويلا دياث Don Fruela Diaz، وهو شقيق دونيا

خميئا زوج السيد، وكونت ليون وأستورياش ورئيس التشريفات في بلاط ريموندو صاحب جيلقية والبرتغال، وقد عرضنا له فيما قبل، فهو من الشخصيات التي ترد في الملحمة، ولا نعرف شيئاً عن دون فرويلا هذا، أكثر من هذه الإشارة العابرة.

● ألبار ألبارث Alvar وألبار سلبادورث Alvar Salvadorez، وهما من

أتباع السيد، ونجد اسميهما في الوثائق الخاصة بزواجه من دونيا خيميئا، والأول طبقاً للوثائق وللملحمة كان ابن أخ له. وتذكر الملحمة ابن أخ ثانياً نه هو بير، أويدور، برمودث Per vermudéz، وكان حامل علمه، وهو شخصية حقيقية، فقد اضطلع بمهمات في بلاط الملك شالجه الثاني، ويظهر أيضاً في الوثائق الخاصة بالملك ألفونسو السادس، المتصلة بأعوام ١٠٦٩ -١٠٨٥م. وهناك مونيو جوستيوث Munoz Gustioz، ورياه السيد، فأخلص له وظل طوال حياته من أتباعه الأوفياء، ويبدو في الوثائق كما لو كان من أقارب دونيا خميئا زوج السيد، فقد ظل مرافقاً لها بعد ترمّلها، وبعد أن تخلت عن بلنسية. والتجأت إلى قشتالة، وحتى وفاتها في عام ١١١٣م. ثم ألبار دياث Alvar Diaz، ويظهر في وثائق البلاط القشتالي الخاصة بأعوام ١٠٦٨ إلى ١١١١م، وفي مرات كثيرة يأتي اسمه باعتباره حاكماً لمدينة أكا Oca، مدينة قديمة، كانت تقع قريباً من برغش.

ونبق بعد ذلك شخصية دون خيرونيمو Don Geronimo، مطران بلنسية

وهو شخصية تاريخية حقيقية، راهب فرنسي الأصل، وكان مغامراً تملاً رأسه الأفكار الصليبية، وذهب إلى بلنسية قبل موت السيد بعامين، أي في سنة ١٠٩٧، ليفيد من جاه السيد، وليقوى عنده الاتجاه المسيحي، وكان يشارك في

القتال إلى جانبه، ويطلب أن تكون الضربة الأولى له، وهو إلى جانب ذلك، تاريخياً وفي الملحمة، ذو ثقافة واسعة، وميل أدبي ظاهر. ولعب دوراً بارزاً في تحويل مساجد بلنسية إلى كنائس، ولم تضع جهوده عبثاً، فقد منحه السيد ضيعة واسعة في جباله، إحدى ضواحي بلنسية.

ولدينا ثلاث شخصيات أخرى هي : فيليث مونيوث Félez Munoz ، ابن إبخ السيد، ومرتين أنتلثيث Martin Antolinez ، البرغشي السوفى، وجليندو غرسية Galindo Garcia ، الأرجون الجرىء، ولا تظهر أسماءهم في أية وثائق تاريخية ربما لأنهم من غمار الناس، أو لأن أسماءهم شابهها تحريف في السنة العامة، ثم جاء الشاعر فالتقطها منهم كما هي.

ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وقد حكم من ١٠٦١ إلى ١١٠٦م، وأظنه في غير حاجة إلى فضل بيان، يكفي أن نذكر أنه كان على رأس حركة إسلامية إصلاحية، تأسست في القرن الحادى عشر الميلادى، على يد رجل مسلم تقى يدعى عبد الله بن ياسين، يقيم في رباط من جزيرة تقع في متحنى نهر النيجر، على مقربة من مدينة تنبكتو، وموقعها في مالى الآن، وكان أعضاء الجماعة في البداية غالباً من «لتونة»، وهى فرع من قبيلة «صنهاجة» البربرية، ويعيش أعضاؤها عيشة البدو في الفلوات الواسعة من الصحارى التى حولهم، ويغظون وجوههم بأثمة تحت العيون، كما تفعل سلالتهم من «الطوارق» في الجزائر حتى اليوم، ومن ثم كانوا يُسمون بالملثمين أحياناً، وأخذوا على عاتقهم نشر الإسلام في القبائل التى حولهم، وكُللت جهودهم بالتوفيق، فما هى إلا سنوات حتى أصبحوا سادة الشمال الغربى لأفريقية، ثم سادة الأندلس في آخر الأمر. وفي عام ١٠٦٢ أسس يوسف ابن تاشفين مدينة مراكش، وقد أصبحت عاصمته وعاصمة أخلافه من بعده. وقد ارتبط

تاريخه، وتاريخ المرابطين أيضاً، بالأندلس منذ موقعة الزلاقة في ٢٣ من أكتوبر عام ١٠٨٦، حين استغاث به ملوك الطوائف المسلمون، فاستجاب لصريحهم، وأنقذهم من مخالب أعدائهم، ولكنه رأى أخيراً أنهم ليسوا على مستوى الأحداث التي حولهم، فأزالهم عن عروشهم، وضم الأندلس إلى إمبراطوريته، واتخذ من إشبيلية عاصمة له في شبه الجزيرة، وبقي الأندلس في حوزة المرابطين، وأمضى هؤلاء أيامهم به في صراع لا يهدأ مع ملوكه المسيحيين، إلى أن سقطت الدولة المرابطية في المغرب والأندلس بقيام دولة الموحيدين.

الشخصية الإسلامية الثانية التي ترد في الملحمة، ترسمها المخطوطة في هذه الصورة اللاتينية Bucar، وأرى أن المقصود به هو أبو بكر سير بن تاشفين، فقد كان في الأندلس، ومعاصراً للسيد، وقاد الجيوش الإسلامية لحصار بلنسية. ويرى متنديث بيدال أن دون ذلك صعوبات لغوية كبيرة، يستحيل معها الاعتقاد بأن Bucar هي تطور لكلمة : أبو بكر. وأرى أنه ليس من الضروري أن يكون نطق اسم أبو بكر بين المسيحيين هو على النحو الذي ورد مكتوباً به في مخطوطة الملحمة الوحيدة Bucar، فنجرب عليه قواعد علم اللغة، وقوانين التطور الصوتي، والأقرب إلى التصور أن يكون الناسخ، أو الشاعر، كتبه بطريقة عشوائية لا تصور نطقه بدقة، وإنما مجرد تذكره فحسب، ومن ثم كان ينطقه بطريقة لا تمثل الصورة التي كتب فيها، ومثل هذه الهفوات في كتابة الأسماء العربية بمجروف أجنبية، كانت شائعة في تلك الأيام، ولا تزال حتى أيامنا هذه، ونفس الصعوبة نعانها في العربية حين نرسم الأسماء الأجنبية بمجروف عربية.

والشخصية الثالثة، تميم ملك بلنسية، وراه بيدال - ودائماً بيدال فيما يتصل بأية دراسة عن السيد - شخصية أسطورية، ولست أدري كيف وقع

العالم الإسباني الكبير في هذا الوهم، صحيح أن تمياً لم يصبح ملكاً لبلنسية أبداً، ولكن كلمة ملك لم تكن تعنى حينذاك ما نعنيه منها الآن، وإنما مجرد لقب اجتماعي رفيع، يطلق على أي حاكم قوى أو أمير شهير، وتميم بن يوسف ابن تاشفين، وكنيته أبو الطاهر، كان قائد الجيش المرابطي الذي التقى بجيوش قشتالة في موقعة أقليمش عام ١١٠٨م، وهي الموقعة التي واجهت فيها الجيوش القشتالية هزيمة ساحقة، وفيها قتل شأجبه الابن الوحيد لألفونسو السادس، وقُتل معه مؤدبه الكونت غرسية أوردوننيث، عدو السيد اللدود، وقد بق تميم في الأندلس، بعد وفاة والده، قائداً لجيوش المرابطين، على حين تولى أخوه عليّ إمارة المسلمين، وكان يسير شئون الأندلس في ذكاء ومقدرة وحنكة وتوفى في عام ٥٢٠هـ = ١١٢٦م.

وتبقى ثلاث شخصيات إسلامية أخرى ضائعة في ضباب التاريخ، وعبثاً حاولت في المصادر العربية، وما بين يدي من المصادر الإسبانية أن أمسك لها بحيط. أولهم ابن غلبون Abengalvon، حاكم مدينة مولينا Molina، مدينة إسلامية تقع قريباً من حدود قشتالة، ومن مدينة سالم، حيث أنشئت الملحمة، وهو معروف للشاعر تماماً، وهو صديق حميم للسيد، وعجب للسلام، ومهذب للغاية وجواد كريم. ثم غالب Galib والحارث Faris، وتعرض لهما الملحمة في مقام النزال مع جيوش السيد.

وأخيراً راكيل Raquel وفييداس Vidas، وهما يهوديان يعملان في الصيرفة، والإقراض بالربا والرهونات، في مدينة برغش، كبرى مدن قشتالة، ويدهي أن التاريخ، وبخاصة في العصر الوسيط، لم يكن يقف عند مثل هذه الشخصيات البعيدة عن مواطن الحرب والنزال، رغم أهمية الدور الذي تلعبه في توجيه الأحداث.

الملحمة والنقد

استمد الشاعر أحداث ملحتمه من الروايات الشفوية، للأحداث التاريخية، كما كان يتداولها سكان مدينة سالم وما حولها، وسرعان ما وجدت طريقها للانتشار خارج النطاق المحلى للمدينة، فأصبحت تنشد في مقاطعات أخرى، ثم ألهمت الشعراء الجوالين الذين جاءوا بعد شاعرها، احتذوا أثره، ونقلوا بعض أحداثه، وحتى وقعوا فيما وقع فيه من أخطاء.

كانت الملحمة شائعة في الأندلس، وليس من الضروري أن يكون ذلك الشبوع دوماً في النص الوحيد الذى وصلنا، وإنما في صورة أخرى دخلها كثير من التعديل والنقص، وربما الزيادة أيضاً. وناسخ المخطوطة الوحيدة التى لدينا، وقد كُتبت في القرن الرابع عشر الميلادى، و «مدونة العشرين ملكاً» وقد أوردت نص الملحمة نثراً، وكتبت في نفس القرن، استخدمنا النص الأقل انتشاراً وشبوعاً في عصرهما، توفيراً للقديم وحبا فيه، ومعارضة للأغلبية وخروجاً عليها. ذلك أن «المدونة العامة» وقد كُتبت قريباً من عام ١٢٨٩م، أوردت الملحمة كلها منثورة، ولكن في صورة مغايرة. وبمقارنتها بالنص الشعرى الوحيد، نلاحظ أنها تعرضت لتغيير محدود في القسم الأول منها، ثم لتغيير واضح وشامل ابتداء من الحديث عن فتح بلنسية، واستهدف الصقل الجديد لها، أن يستدرك ما نسيه الشاعر الأسمى، وأن يجعل من الحكمة أشد تعقيداً، وأن يمد في أحداثها وأن يعطى الرواية شكلاً أكثر فروسية من شكلها البطولى الساذج الذى كُتبت فيه. فإذا تجاوزنا القرن الثالث عشر، إلى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر حين كتبت «مدونة السيد» وأوردت نص الملحمة

للمرة الثانية، ومثوراً أيضاً، نجد التعديل أكثر وضوحاً وأوسع شمولاً، فامتد إلى بدء الملحمة، وبق فيما سبق سليماً، أو يكاد، وفيها نلتقى بشخصيات جديدة لم تكن معروفة لنا من قبل.

من خلال هذا الصقل المستمر امتدت حياة الملحمة عبر القرون، وهى فى كل قرن، وبين كل جماعة، تلتقط أذواق السامعين وتتواءم معها، حتى إذا وصلنا إلى القرن الخامس عشر، تفرعت عنها أغان شعبية رومانسية، تتضمن بعض أبيات الملحمة، ولكنها تكسوها ثوباً جديداً من شعر طريف، وبعض هذه الأشعار مازال يتردد صداه حتى اليوم فى إسبانيا والبرتغال وشمال المغرب، عند من استقروا هناك، واتخذوا الإسبانية لساناً.

وبعد القرن الخامس عشر أنك فيليب الثانى إسبانيا فى حرب دينية لا تنتهى، وشغل عامة الناس بأجماد فريدة، تتمثل فى اكتشاف إسبانيا لقارة كاملة، ولأول مرة فى التاريخ، ثم غزوها واستعمارها، ونبضة أدبية رفيعة، لفترة دخلت تاريخ الأدب تحت اسم «العصر الذهبى»، فقد كان بعض أعلامه قمماً إنسانية خالدة، يكفى أن يرد فى خاطر المرء سرفانتيس مؤلف «دون كيخوته»، فى الرواية، وكالديرون ولوى دى فيجا فى المسرح، فلم يعد المثقفون، إلا قلة عالة، يذكرون شيئاً عن ملحمة السيد، وعندما طُبعت لأول مرة عام ١٧٧٩، لم يعرهما أحد كبير التفات، لأن الحياة الإسبانية يومها، كانت فى جوانبها المختلفة، سياسية أو ثقافية أو اجتماعية أو أدبية، ذات طابع فرنسى خالص، أو كما يقول أحد كتاب ذلك العصر: «كان الناس يومها يأكلون ويشربون ويلبسون ويتحدثون على نحو فرنسى». لكن من الحق أيضاً أن أدب العصور الوسطى كان مجهولاً لدى أوروبا كلها، إن ألمانيا لم تعرف ملحمتها الشعبية Nibelungos إلا بعد تاريخ نشر ملحمة السُّد بأربعين عاماً، واحتاجت

فرنسا إلى ستين عاما لكي تعرف ملحمتها « رولان ».

وبينا كانت الملحمة تحظى بتقدير متواضع للغاية في إسبانيا نفسها، جاءت الرومانسية الوليدة في الخارج، وكانت تتعاطف مع العصور الوسطى، فألقت عليها مزيداً من الضوء، وشدّت إليها انتباه المثقفين. ففي عام ١٨٠٨ قال عنها الشاعر الاسكتلندي روبرتو سوثي Rodberto Southey (١٧٧٤ - ١٨٤٣)، وعكف طويلا على دراستها، وفك صعوبات نصها: « إن ملحمة السيد أجهل قصيدة كُتبت في اللغة الإسبانية »، وعاد في عام ١٨١٣، « فتعسى على الإسبانين أنهم لا يعرفون قيمتها الممتازة، وتضم تساريخ السيد شعراً، وما داموا لا يمزقون حجب الذوق الزائف الذي يحول بينهم وبين معرفتها، فلن يستطيعوا أبداً أن يبدعوا شيئاً عظيماً يدخل دائرة الفن الرفيع. ويمكن القول أنه بين كل الملاحم التي ألفت بعد الإلياذة، فإن ملحمة السيد أشدها هومرية في روحها، ولو أن اللغة في شبه الجزيرة في ذلك العصر، كانت ريفية وفي طور التكوين ».

ودرس المؤرخ الأمريكي جورج تكنور Jorge Ticknor (١٧٩١ - ١٨٧١) الملحمة، في كتابه « تاريخ الأدب الإسباني »، ونشره عام ١٨٤٩، وكان تعليقه عليها: « يمكن التأكيد بأنه خلال القرون العشرة الماضية، منذ انهيار الحضارة الإغريقية والرومانية، حتى ظهور الكوميديا الإلهية لدانتى، فإن أى بلد لم يبدع قصيدة من الشعر أشد أصالة في شكلها، وتنضح واقعية وقوة وحيوية، مثل ملحمة السيد » بقى أن نشير إلى أن الشاعر الإنجليزي لم يعرف ملحمة « رولان » الفرنسية على وجه التأكيد، ويُشك في أن المؤرخ الأمريكي عرفها، لأنها نشرت لأول مرة عام ١٨٣٧ ولو عرفها لربما استأنيا في أحكامها قليلا، وتحفظاً من التعميم شيئاً. وانفتح أمامها باب المقارنة عريضا واسعاً.

أما العالم الألماني فرناندو فولف Fernando woif (١٧٩٦ - ١٨٠٦). وكان متخصصاً في اللغات الرومانية بعامة، وفي الأدب الإسباني بخاصة، فقد ركز على الوحدة التي تربط بين أجزاء الملحمة الثلاثة، والتقائهما في إطار فني واحد رسمه الشاعر. «وتمثل جمالها في أنها ليست عملاً تجريدياً أو فكرياً خالصاً، وإنما التقاط عفوى للواقع، ومن ثم فهي أكثر إخلاصاً وأشد تلقائية، وعرض الفن عارياً يدفع إلى أعماقنا بالحقيقة صافية، وبالواقع كاملاً، ونحن نستشق أحداثها بسيطة وساذجة ونفاذة. والتكرار المستمر للكلمات والجممل، للتعبير عن نفس الأفكار والظروف، واستخدام ذات الأوصاف، يذكرونا بالملاحم الإغريقية».

وحاول دَما إِنار Damas Hinard الفرنسي أن يحكم على الملحمة من خلال عصرها، واتخذ ملحمة «رولان» الفرنسية قاعدة للمقارنة، وكانت طبعها الثانية قد صدرت خلال أعوام قليلة من طبعها الأولى، وأصبحت مع الزمن نموذجاً شهيراً، وانتهى إلى أن شاعر «رولان» أوسع ثقافة من السيد، ويعرف من العصر الكلاسيكي القديم الشيء الكثير، مما كان معروفاً على أيامه، وجاءت ملحمة وليدة فكر صائب، واتسمت بالوحدة والبساطة فكانت بشيراً بالكلاسيكية الفرنسية للقرن السابع عشر، لكن تنقصه صفات الشاعر العظمى، والإحساس بالحياة الإنسانية، والقدرة على التعبير عنها. وجغرافية الملحمة رائعة، وشخصياتها غالباً متخيلة، أو تنتمي إلى عالم الأساطير، رؤوسهم ضخمة، وأعمالهم تدخل في دائرة المستحيل، فقرع الطبول في ملحمة «رولان» يسمع على بعد ثلاثين ميلاً، والبطل «توربير» وأربعة سهام في بدنه، أو «رولان» ورأسه مقطوع، يتحرك ويقاوم كقديس والجيوش ضخمة، ٣٦٠ ألف مقاتل، و٤٥٠ ألف فارس، وخمسة فرنسيين قتلوا أربعة آلاف

مسلّم، وفقدان الواقعية يبدو حتى في العرض.

وعلى العكس من ذلك، شاعر السيد لا يجب أن يسرف في الخيال، وإنما يستخدمه ليضع أمام أعيننا الحقيقة فحسب، وهو لا يقدم لنا لوحة لإسبانيا في القرن الحادى عشر، وإنما ينقلنا نحن إلى نفس القرن، ويجعلنا نشاهد الأحداث بأنفسنا. والشخصيات مرسومة بالألوان المناسبة، ونغم الحكاية ولونها يأخذ شكلاً مناسباً مع كل حدث، فإذا عرض قصة رهن صندوق الرمل لليهوديين، أو أسر كونت برشلونة، أو مبارزة «كوريس» أو اجتماع بلاط طليطلة، تحسُّ أنك في حضرة قصاص ممتاز من القصاص المحدثين، قصاص من طراز ولتر سكوت مثلاً.

ولكن كاتباً بلجيكيّاً من القرن التاسع عشر هو ل. دي مونج *L. de Monge* يرى أن مؤلف ملحمة «رولان» همجى موهوب الذكاء، ينضح ببهمل عظيم، بينما شاعر السيد روح مثقف، يتابع من فوق واقع عصره مثلاً أكثر سموً، ويدفع كل شيء بذكاء نادر إلى الهدف الذى ارتآه. فى «رولان» نصطدم بقسوة التقاليد، والوحشية، والتعصب، وفى السيد نجد الإنسان، والإحسان، والطلاوة، وباختصار فإن ملحمة السيد قد تكون أقل عظمة من ملحمة «رولان» ولكنها أقل همجية، وأكثر واقعية، وأشد حيوية، وأعمق إنسانية، وذات مشاعر تنساب مباشرة، وسريعاً، إلى قلوب كل الرجال، فى كل الأوقات.

أما فى النقد الإسبانى فلا نجد إلاّ صدى خافتاً لإعجاب سونى الرومانسى، ودراسة فولف المتعمقة، إلى أن يأتى العالم اللغوى ميلا إى فُنتنالس *Mila y Hontanals* (١٨١٨-١٨٨٤م) فيملاً هذا الفراغ ويعرّف أوروبا فى عام ١٨٧٤، ولأول مرة، بمكان الملحمة الحقيقى، بين مجموع الأدب

الملحمى القشتالى، وكان من قبل مجهولاً. وإلى جانب ذلك قدّم لنا تقويماً فنياً للملحمة، ممتازاً ومنصفاً. فرواية الشاعر ذكية، ودون أن يتعمد كثيراً عن الهدوء الجاد، نراه فى المواقف العائليّة، لئن الأسلوب رقيق المشاعر. وحين يعرض لقصة صندوق الرمل أو الأسد نلقاه ساخرّاً صاحكاً، وفى مأساة «كوريس» حزينا مهتماً، ثم يقطع الرواية بعنف بالغ لحظة انتهائه من تتبع سير القتال.

والخصائص الجسميّة والحلقيّة لشخصيات الملحمة تبدو مرسومة بوضوح وفى دقة، وهذه الميزات، رغم لغتها الجافية وغير المنتظمة، وأن الشعر خشن وغير مكتمل، ورغم غياب الجاذبيّة وضحالة يتابع الفن، تسمح لنا بأن نصف ملحمة السيّد بأنها ملحمة معنّمة، نتاج عصر ممجى ويطول، خصبة فى صورها الشاعريّة، وليست مجردة فى العمق من المشاعر النبيلة، ولو أنها على نحو واضح للغاية بعيدة عن المثل الأعلى للمسيحية، إلا أنها مرآة صادقة لسلسلة من الأحداث والتقاليد، تكمل الوثائق التاريخيّة، وهى قبل ذلك أثر لا مثيل له فى لغتها الأدبيّة، وفى تصويرها للإنسان.

وإذا كان ميلا قد عرفَ أوروبا بالملحمة، فإن تلميذه مننديث إى بلايو أشاعها بين الأوساط الأدبيّة فى إسبانيا، مما جعل الأديباء المحدثين يقرأون الملحمة ويستلهمونها، ويوجز رأيه: «الأكثر فتنة فى المنحمة، أنها تبدو شعراً يُعاش، وليست كلاماً يُنشد، وهى نتاج قوة غامضة تمتزج بالطبيعة نفسها، وبرزها يفتقده الرجال المثقفون.»



فإذا تركنا النقاد إلى الملحمة نفسها، وجدناها تراوح بين القص والحوار على كثرة في الأول وقلة في الثاني، وحين تنتقل إلى الحوار تفعل ذلك دون أن تهذّ له بما يهوى السامع لادراكه، من كلمات : قال أو ردّ أو أجاب أو تحدّث، وقلماً تربط بين الجمل بأدوات العطف اللغوية.

والبطل فيها شخصية مثالية، رقيق مبتسم؛ مقدام في الهجوم، عاقل في النصح، مخلص للملك، لا يشهر السلاح في وجهه حتى ولو تلقى منه الأذى. ومحّب زوجته وأبنائه، متسامح مع أتباعه، بل ومع المهزومين أمامه، مستقيم في آرائه، عارف بالطباع الإنسانية، صاحب سخرية حقيقية، متدين أحياناً، وملحد أحياناً أخرى.

وصورَ الشاعرُ الملك ألفونسو على العكس من السّيد البطل : جمعه غير ذى رأى، أسير رجال البلاط، يملأون سمعه بأراء سخيفة، وبأكاذيب لا تنتهى، وغضبه ضد السّيد عنيف، وليس له ما يبرّره، وعندما نفاه هدّد سكان برغش بأقسى العقوبات إن هم آووه أو باعوا له طعاماً، وهم بأن يردّ السّيد إلى عفوه ثم تراجع في رأيه. غير أنه حاول أن يعوضه عن مظالمه بالألوان من الحنان المتوالى، وبدا له السّيد. بالرغم من غيرة فرسان الملك منه، كريماً في أعماقه، مخلصاً في ولائه، مثله لا يختلس شيئاً من الغنائم، وقد أرسل لجيبيها.

وإلى جانب شخصية السّيد وألفونسو، فإن الشخصيات الثانوية في الملحمة تأتي معدّدة الصفات، فرتين أنتولينيث برغشى وقى، وألبار هانييث عاقل مخلص، وسفير ثقة، وفارس عملاق، ويدرو برمودث شجاع مندفع، عريض العمل قليل الكلام، ومونيو جوستنيوث ريب السّيد، الساخر من

جبن أميرى «كاربون»، وألبار سلفادورث الثقة، والأرجون جلين
غرسية النبأ الجرى، وقاما على حراسة بلنسية عندما تركها السيد ليلقى
الملك، والمطران دون خرونيمو رب السيف والقلم وهكذا...

ووسط هؤلاء المحاربين يلفهم صخب المعارك، ويفتقدون هدوء السلام،
تظهر دونيا خمينا وبتاها، فتشع جواً من الحنان ولطف الأنوثة، فدونيا خمينا
نبيلة وابنة فارس، وزوجة شريفة، تحترم زوجها وتخلص له، رقيقة المشاعر في
الحب وعند الحزن، تجزع من طول الحرب، وتميد أمام ضجيج المعارك،
وبتاها: إلبرا وسول بياضوان كصبح يوم صاف، لم تترك على ملاحظهن أيام
بُعدهن عن الأب منقياً أية سمات قاسية أو حزينة، وبانتقام زوجيهما منها
يصبحان من الشخصيات الرئيسية في البناء الدرامى للملحمة.

وفي مقابل هذه الشخصيات النبيلة تقدم لنا الشاعر طائفة أخرى من
الشخصيات غير راض عنها. فغرسية أوردونييث يغار من السيد، ومستشار
ردىء للملك ولأسرته، انهارت غضبته سد أن أسره السيد في «قبرة» وعفا
عنه، ومن يومها حمل لقب «كنت قبرة». وكونت برشلونة جبان مستهتر،
وأسور جنثالث طويل اللسان، طفيل نهم، صديق الموائد الغنية، ومعبود
الأطعمة الجيدة. وأميرا «كاربون» ديجو وفرناندو، مصدر كل سوء يُدبر،
نهان إلى ثروة السيد، مزهوان بأسرتها، غير أنها لا يحترمانها واقعاً، وهما
فارسان طيبان، ولكنها جبانان عند اللقاء، جبانان حتى الرعب كما وقع منها
في حادث الأسد^(١)، ثراران، ينتقمان توهما، كما صنعا مع زوجتيهما، جلداهما،
وتركاهما عاريتين، نصف ميتتين، انتقاماً من سخرية الحاشية منها، وملاحظتها
بالنكات، لفرارهما مرعوبين عند انطلاق الأسد من مريضه في حديقة النصر.

(١) انظر القصيدة رقم ١١٢ من النص.

وهناك اليهوديان، راكيل وفيداس، وقد فجاها الشاعر بعد أن التقود التي كسباها، لا يثقان في أحد، ولا يدفعان قبل أن يقبضا، والحياة عندهما أن يربحا شيئاً، يتشاوران في كل شيء، ويقضيان كل أمر في السر، فرحين ببريق الثراء المقبل، فالصندوقان اللذان رهنها السيد فيها كل ثروته، ومن نصيبها بالتأكيد، فالملك لن يرضى عنه، ولن يعود من المنق قبل عام، واذن فكل ما بداخلها من جواهر ومال سيكون من نصيبها.

والشخصيات الأسطورية والقصصية، وهي قليلة، يأتي بها الشاعر لكي يثبت معها بعض الحقائق في أعماق مستعميه، فالملك جبريل يظهر للسيد في آخر ليلة يمضيها في قشتالة، قبل أن يضرب في أرض الأندلس منفيًا، يقدمها الشاعر دليلاً على براءة السيد، وأن الله لن يتخلى عنه، ولن يحرمه من رعايته، وهو يحميه ويعدّه بالنصر ما امتدت به الحياة. ومن يدري فلعلّ هاجساً حقاً فاض في أعماق السيد، وبدأ له حلماً عندما أفلت اللاوعي من سيطرة الشعور.

والسيد فقير جداً، ولكي يواجه مطالب العيش له ولرجاله، يلجأ إلى الحيلة، يملأ بالرمل صندوقين، مزخرفين مذهبين، مغلاة في الخداع، ويدفع بها إلى اليهوديين لكي يرهنها، ويحصل في مقابلها على مال، ثم يقارن بين فقره، بطريقة غير مباشرة، وبين نهم اليهوديين.

وتعكس الملحمة بطريقة إنسانية ومثيرة الحياة اليومية، والتقاليد، وأفكار العصر، في أسلوب أقل لمعاناً، ولكنه أكثر وفاء للواقع، ومع أن الشاعر يلتقط مادته من الروايات والحكايات الشفوية لمدينة سالم لكنه يقدم لنا من خلالها ما يساعد على تصحيح أخبار المدونات، أو يكملها، أو يحدد مكان الأحداث. ونذكر منها أن الثار في الواقع، كما هو في الملحمة، واجب عائلي، تضطلع به

الأسرة كلها، وأن غضب الملك كاف لنفى المرء ومصادرة أمواله دون أدنى محاكمة.



لا نجد في الملحمة أى صدى للطبقات الاجتماعية، وأحداث الملحمة تجري بين طبقة النبلاء مولداً أو انتساباً، غير أن هؤلاء النبلاء يتفاوتون درجات داخل الطبقة نفسها. ولكن الشاعر، وهو من الشعب، وإلى عامة الشعب كان يتوجه بإنشاده، معاد لطبقة النبلاء، ومن ثم فهو يقدمها لنا جبانة مخنثة، تعيش حياة طرية وغضة، وهو يحترم الملك، حتى عندما يظلم السيد، ويتحدث عنه بوقار، لأنه الدعامة التي يعتمد عليها عامة الشعب، في مواجهة مظالم الأمراء والفرسان والإقطاعيين. وعواطف الشاعر تتراوح بين السيد والملك، ولو أنها إلى الأول أميل، وهو يقدم لنا صورتين لعلاقة السيد بالملك: الأولى التابع في خدمة الملك، والأخرى التابع الثائر عليه، وحياة السيد قسمة بينهما، لقد نفاه الملك وصادر أمواله، وقام هو من جانبه بالإغارة على مملكة قشتالة، فنهب ودمر وحرب، ولكنه مع ذلك لا يريد الحرب مع الملك، ويرسل له هدية خير ما يصيب من الغنائم.

والأسرة في الملحمة ذات مدلول واسع، قريب من معنى الأسرة عند عرب الجاهلية، فهي مجموعة كبيرة، وينسب إليها حتى أولئك الذين يربون فيها ولو لم يكونوا منها، وكان رب الأسرة يربى دائماً أكثر أتباعه ولاء، والأسرة متأسكة فيما بينها، وتجمع الأولاد والأحفاد والأعمام والأقارب الأبعد، وكلهم يواجهون متاعب الحياة متضامين، والإهانة التي تصيب واحداً، تعد كما لو كانت موجبة للجميع، والثأر لها واجب الأسرة كلها. ولا تلعب المرأة دوراً بارزاً في الأحداث، ولكنها وراء بعضها، ولا تتكلم فيها إلا لكي توفّر زوجها، أو أباهما،

أو لتشكر حمايته لها خاشعة، لطيفة حلوة حتى وهي تتقبل قسوته. وليس في الملحمة أثر لغزل حسى أو عُذرى، وليس ثمة فساد ولا تحلل، والسيد لا يقتحم معاركه كبقية الفرسان على أيامه، بفكرة أن يُظهر فروسيته وشجاعته لصديقه أو عشيقته، وإنما يفكر دائماً في زوجته العزيزة والشريفة، وفي وجودها يحس بعزيمته تزداد صلابة وقوة.

وتقدم لنا الملحمة تفصيلات عن الحرب ونظمها؛ لا تكتفي بأن تقول: التق الجيشان صفين، وتقدم المبارزون، وإنما تقدم لنا ألوانا منها، كالطلية والغارة والمركة الفاصلة، وتصور ما يجري فيها من كر وفر، ثم تتابع الغنائم، وهي الهدف من أية معركة، وتقف عند تقسيمها. وهي معرض حافل بالوان الأسلحة التي تستخدم في القتال، فهناك السيوف القاطعة ذات المقابض الجميلة، والنصال والسهام والحراب، والفئوس القادرة على اختراق الدروع، وقطع الأجسام، وخلع السواعد، والدروع والخوذ، والرايات والأعلام، والخدع الحربية وتضليل العدو، وإرسال العيون، واستخدام الجوع، والحصار الشديد وقطع الماء وإغراق السهول. ويمضى بنا الشاعر عبر الجبال والسهول والوديان والحصون والقلاع، وكلها أمكنة معروفة، ولها من تاريخ الأندلس نصيب.

ثم يحدثنا عن بعض العادات الاجتماعية، ومراسم البلاط، ومظاهر السيادة عند الملك، والتبعية عند الفرسان؛ فتقبل يد الملك دلالة على التبعية والولاء، والانحناء أمامه مظهر يقتضيه الإجلال والمبالغة في الإخلاص، وأخيراً فلإن السيد يجثو على قدميه ليقبل قدمي الملك، ويلتقط حشائش الأرض بأسنانه، إظهاراً لعودته إلى ساحة الملك تابعاً ورعيةً.

وينسى الشاعر أحياناً، وهو جوال منشد، فيصف الشيء الواحد بوصفين مختلفين في مكانين، «فكوفية» السيد من قماش رقيق escarin، وهي في مكان

آخر من قماش rancal، ثم يقول على لسان ألبار هانيث للملك، إن السيدانتصر في خمس معارك فاصلة، ولكنه لا يعد منها غير اثنتين. وفي الموقعة التي جرت مع يوسف بن تاشفين، يذكر أن ألبار سلفادورث وقع أسيراً في قبضة أمير المرابطين، ثم يعود فيجعله في صحبة ألبار ألبارث لا يفارقه، دون أن نعرف كيف تحرر من الأسر. ويجعل السيد يبدى إرادته في أن يرسل خيمة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، وقد غنمها فيما غنم بعد انتصاره في المعركة، هدية إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، ولكنه عند إرسال الهدايا وتعدادها لا يعرض لها. ومن يدري فربما صححها الشاعر، هي وغيرها، في روايات أخرى، لأننا نجد مصححة في المدونات التي نقلت الملحمة نثراً.

ومعلومات الشاعر المسيحية متواضعة للغاية، ويخطيء في أشياء جوهرية يعرفها أى مسيحي عادي يتردد على الكنيسة، دون أن يكون مثقفاً، مثلاً يتصور أن كلمتي Calvario و Golgota اسمين لجبلين مختلفين في فلسطين، وأن اليهود أمسكوا بالمسيح على الجبل الأول، وصلبوه على الجبل الثانى. والحق أنها اسمان لجبل واحد، وكل ما هنالك أن الكلمة الأولى تطلق عليه في اللغة اللاتينية بينما الثانية اسمه في اللغة العبرية، أما الجبل الذى أمسكوا بالمسيح عنده، فهو جبل الزيتون^(١).

وثمة تفصيلات صغيرة يسكت عنها الشاعر، ولا تعد نسياناً، فقد وعد السيد بأن يهدى كنيسة بلنسية الطبل الذى فى جيش ابن تاشفين بعد النصر، ثم لا يذكره بين الهدايا. وخلال رحلة دونيا خمينا من قشتالة إلى بلنسية، ونزولها ضيفة ومن معها على ابن غلبون حاكم مولينا، بالغ في إكرامهم، ومن

(١) انظر القصيدة رقم ١٨.

ثم وعده البار هانيث بأن يحدث السيد عما أسداه إليهم من جمائل ومعروف، لكي يكافئه على حسن صنيعه، غير أنه لم يذكر شيئاً عن مكافأة السيد له، رغم أنه وصل معهم إلى بلنسية.

ويجعل إساءة أميرى «كاربون» لزوجتيها، بنى السيد، والانتقام منها، بعد استيلائه على بلنسية، والحق أن ذلك، إذا جرينا على أن هذا الزواج قد تم فعلاً، يجب أن يكون حدث قبل فتح بلنسية.

لا توجد في الملحمة فكرة وطنية أو قومية، والشاعر يتحدث عن بطل شعبي، يحظى بإعجاب الجميع، أيًا كانت المقاطعة التي ينشد فيها، وأياً كان الجمهور الذي يستمع إليه، ولو أنه كان دائماً يراعى أذواق المستمعين، فيوائم بين ما يقول وما يريدون، ولا أظن أن ذلك مما يعاب فيها، فذلك أفكار كانت خارج اهتمامات العصر.

وأخيراً فإن ملحمة السيد، كإبداع أدبي ينتمي إلى العصر الأدبي الأوربي الوسيط، تتميز كأي عمل أدبي آخر بين الشعوب الرومانية، بغياب الشخصية وفقدان التنوع، فكل الشعراء، في كل البلدان، يدورون حول نفس القضايا، ويُشغلون بنفس الاهتمامات، وأكاد أقول، ويستخدمون نفس الصور والمعاني.

تأثيرات عربية في الملحمة

هناك ثلاث نظريات حول نشأة الملحمة القشتالية بصفة عامة، بعضهم يردّها إلى التأثير الفرنسى، والفريق الثانى يردّها إلى أصل جرمانى قديم، وأحدث الدراسات وأكثرها موضوعية يردّها إلى أصل عربى.

الفريق الأول يأتى على رأسه الشاعر الفنزويلى، والكاتب السياسى أندريس بيلو Andrés Bello (١٧٨١-١٨٦٥)، والعالم الفرنسى الشهير جاستون بارى Gaston Paris (١٨٣٩-١٩٠٣)، وهو حجة فى تاريخ الشعر الفرنسى خلال العصر الوسيط، وتنهض وجهة نظرها على دعامين: أن الشكل العروضى فى الملحمة الفرنسية والقشتالية متشابه فى نواح كثيرة، ألوان من التشابه لا يمكن أن تحمى صدفة وعفوا. والدعامة الثانية أن الإنتاج الملحمى بدأ فى الأندلس فى الوقت الذى كانت فيه الملحمة الشعبية الفرنسية قد وجدت من زمن طويل، ولم يحدث أن صيغ من أى حادث تاريخى إسباني ملحمة تُعنى، قبل أن تشيع الملحمة الفرنسية فى إسبانيا، قريبا من نهاية القرن الحادى عشر، أو أوائل القرن الثانى عشر.

لم يرتض العالم الإشباني مثنديث بيدال وجهة النظر هذه ويرد على الدعامة الأولى منها، بأن عروض الملحمة الإشبانية لا يعرض لنا فى صورة عالية من الإجادة والدقة على النحو الذى كانت عليه الملحمة الفرنسية، ولو كانت الأولى تقليدا للثانية لسارت على هديها فى هذا المجال. لقد مرت الملحمة القشتالية بتطور ذاتى ويطىء قبل أن تبلغ هذا القدر النسبى من الإجادة/ فى عروضها، وفى حالات كثيرة نجدتها تخضع لإضافات لغوية تقتضيها حركة

الروى، وليس لها في الفرنسية شبيه.

ويرد الدعامة الثانية، بأن الملحمة الفرنسية دخلت إسبانيا في نهاية القرن الحادى عشر وأثرت في ملحمة السَّيد، وأنشيد أخرى تالية ذات صفة ملحمية، ولكن قبل هذا القرن، أى في القرن العاشر، كانت توجد شواهد ملحمية قشتالية مثل أسطورة الكونت فرنان جنثالث، وملحمة «سمورة»، وكلها كُتبت بعد قليل من وقوع الحوادث التى تنغنى بها، وتُعالج فيها الموضوعات بطريقة تغاير ما هو متعود في الملحمة الفرنسية.

ويتبنى بيدال وجهة النظر الثانية، فيرى أن الملحمة الجرمانية هى الأصل لكل من الملاحم الفرنسية والقشتالية، وهى نظرية تجد معارضة شديدة من الدوائر العلمية الفرنسية، لأسباب قومية وشعورية، ويبنى رأيه على أساس أن بعض العادات الجرمانية العنيفة، وغير المتمدينة، وتعيش في الملاحم التى أشدت جنوب جبال البرانس وشمالها، وأوضحها الثأر، فلا شيء يغسل الدم في الملاحم الجرمانية كالدُم، والثأر مسئولية جماعية، تنهض به الأسرة كلها، ويتوارث من جيل لآخر، ويرتبط به شرف العائلة، ويمكن أن يؤخذ من المعتدى أو أقرب الناس إليه، وهى تقاليد يجهلها القانون الرومانى، والقانون الإسبانى القوطى، وضد تعاليم الكنيسة. وكذلك بعض تقاليد المجتمع، كتران الفرسان للوصول إلى الحقيقة، واعتبار المهزوم مخطئا أو خائنا، ودعوة الفرسان للتساور إزاء القضايا المشتركة، وإعطاء السيوف أسماء خاصة، وعدم التسامح أو العفو فيما يمس الشرف، والصلة بين السَّيد والتابع وما تفرضه من تعاون مستمر، وإجارة المرأة للمستجير شيء مقدس.

وإذا كان رفض الفرنسيين لفكرة التأثير الجرمانى وليسذ عوامل نفسية

وشعورية وقومية، فرفض فكرة التأثير الفرئسي، والقول بالتأثير الجرمانى وليد عوامل مشابهة لتلك، فالصلات العلمية، من زمن طويل، بين مراكز البحث فى إسبانيا وألمانيا، قوية متينة، والتعاطف بينهما واضح بىن، وليست هى كذلك بين الفرئسيين والإسبان. ولم يستطع بيدال، وكان فى مجال الدراسات العربية مستطيعاً بغيره، لأنه لا يعرف العربية ويعتمد على المترجمات، أن يدرك أن ما جعله سبباً جوهرياً للقول بالتأثير الجرمانى وهو الشار ومظاهره عادة عربية متأصلة، وما تزال بقية من ظواهرها حية حتى اليوم فى البوادي، رغم أن الإسلام يحرم الثأر، وأن القوانين المدنية تعاقب عليه.

أما النظرية الثالثة والأخيرة، فداعتها العالم البلسنى الجليل خوليان ريبيرا، وتنهض على أن الأندلس عرف بعد الفتح الإسلامى بقليل لوتين من الأدب الشعبى، عربى كُتب فى العامية، وإسبانى كُتب فى الرومانشية، متأثرين فيما بينهما ومؤثرين، فى الشكل والمضمون. وإذا كنا نعرف أكيداً أن الزجل ابتدع فى الأندلس، وصيغ فى عربية عامية، أو مزيج منها ومن الرومانشية، قريباً من نهاية القرن التاسع الميلادى، أو أوائل العاشر، فما من سبب يجعلنا نعتقد أن الزجل وقف عند حد الشعر الغنائى، ولم يتجاوزهُ إلى الشعر الملحمى، لأن الشعوب عندما تُغنى فى بدء حياتها تتغنى بكل شىء، ويأتى التمييز بين ما هو غنائى ذاتى، وما هو ملحمى موضوعى، فى مراحل متقدمة من تطورها الفنى.

والحق أننا فى القرن التاسع، والقرن الذى شهد مولد الزجل، نجد إشارات لقصيدتين ذوات طابع تاريخى، وخصائص قصصية أو ملحمية، إحداهما للغزال، يحيى بن الحكم (٧٧٠-٨٦٤ م) من سفراء عبد الرحمن الثانى، والثانية لقميم بن علقمة، (٨٠١-٨٩٦ م)، وكان وزيراً لثلاثة أمراء أمويين: محمد والمنذر وعبد الله. ولسوء الحظ فإن كلتا القصيدتين

ضاعتا، رغم شيوعهما في العصر الذي قبلتا فيه، وجاءتا في وصفها إشارات قصيرة، ولكنها كافية لكي نعرف الآن، في اطمئنان واثق، شيئاً عن شكلهما الشعري، ومضمون كليتها. فابن الأبار في كتابه «الحلة السراء» يورد ترجمة مختصرة تميم يضمنها هذه الفقرة: «وله الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولايتها، والخلفاء فيها، ووصف حروبها، من وقت دخول طارق بن زياد مفتحتها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم». ولزيد من توثيق الخبر نذكر أن ابن القوطية المؤرخ، وعاش في الجيل التالي مباشرة لجيل تميم، فقد توفي عام ٩٧٧م أشار إليها في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» ولكنه لم يورد منها بيتاً واحداً.

أما يحيى الغزال فالأخبار عن ملحمة أوفى تفصيلاً، تقول الرواية إنه كان عائداً من سفارة في بلاد النورماندين، أي الدنمرك والنرويج في عصرنا الحاضر، فاضطر إلى البقاء في مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela، وتقع في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا، وخضعت فترات قصيرة ومنقطعة للحكم الإسلامي، ويمكن القول بأن أحداً من المسلمين الوافدين لم يتخذها سكناً دائماً، لبردها القاسي، وأمطارها الغزيرة، وثلوجها الدائمة، وانطلاقاً من هذه الحقيقة لا نشك في أن الرومانثية كانت لغة الحياة فيها لكل القاطنين، حتى ولو وُجد بينهم بعض المسلمين. والأرجح أن يحيى كان يجيد هذه اللغة إلى جانب لغات أخرى، ومع هؤلاء القوم، وبعيداً عن شواغل الحياة، عكف على نظم أرجوزته عن فتح الأندلس، ويقول عنها المؤرخ ابن حيان (٩٧٨-١٠٧٠م)، وعرفها جيداً، إنها صيغت في بحر الرجز، جميلة وعظيمة، تعرض لأسباب الفتح، وتفصّل وقائع الحرب وتصف المعارك التي حدثت بين المسلمين الفاتحين والقوط الحاكمين، وتذكر أمراء الأندلس بأسمائهم، وكتبت في لغة

رقيقة، معتنق بها، وكانت متداولة بين أيدي الكثيرين.

كانت هذه القصائد إذن قصصية ومطولة، وذات مضمون تاريخي أو حروي، وتخللها حكايات شعبية، وروايات شفوية مسيحية، فقد كان الغزال طبقاً للإشارات التاريخية، ينحدر من أصول مسيحية أندلسية، وتيمم ولو أنه ينتمي إلى أسرة عربية، كان متزوجاً من مسيحية ذات أصل نبيل، ابنة كونت أندلسي، أي أنه في بيته، مع سكنه، كان يتحدث اللغة الرومانشية، ويعرف شيئاً من أقاليم أهلها وحكاياتهم، فليست هناك زوجة تسمع دائماً، إنها مع زوجها تتكلم أكثر عما تسمع. ولم يكن الغزال أو تميم وحدهما، وإنما هناك قصائد كثيرة، لشعراء عديدين، تقص بطولات المنصور بن أبي عامر، ومحاربين آخرين ممن عرفهم الأندلس، في الشعر العروي، أو في الزجل العامي، ضاعوا في غمار التاريخ، كما ضاعت آثارهم، وكما ضاع كل تاريخ لمبدع الزجل نفسه. وفيما أرى فإن أكثر هذه القصائد تجديداً، وأقربها إلى العامية، هو الذي ضاع. أما القصائد التي جاءت على النحو التقليدي فقد وصلنا منها القليل، فابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠) قال أرجوزة مجّد فيها الخليفة الناصر، ووصف حروبه وغزواته، وأوردها كاملة في كتابه «العقد الفريد». وأورد ابن بسام في القسم الأول من كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» المجلد الثاني النص الكامل لأرجوزة أبي طالب عبد الجبار، من جزيرة شقر، وكان يُعرف بالمتنبي لبراعته في الأدب، وتفنته في العلوم، وإجاداته المشهور المنظور، وقال عنها ابن بسام: «وله أرجوزة في التاريخ أغرب فيها، وأعرب بها عن لطف عمله من الفهم، ورسوخ قدمه في مطالعة أنواع العلم، وقد أثبتنا على طولها لاشتمال فصولها على علم جليل، وبلغ في الخبر طويل». وجاءت الأرجوزة في ٤٥٢ بيتاً، بدأها بخلق الكون، واستعرض فيها تاريخ الأنبياء والخلفاء، ومن تلاهم من

بنى أمية، فدولة بنى العباس وبنى أمية بالأندلس والفتنة الأولى بقرطبة، وملوك الطوائف الشوار؛ وانتهى عند على بن يوسف؛ الأمير الثاني لدولة المرابطين.

هذا الشعر القصصى والتاريخى، فى اللغة الفصحى أو فى عامية أهل الأندلس، كان العامل فى نشأة الشعر الملحمى القشتالى والفرنسى، والثانى كان تالياً للأول فى الوجود، وانتقال هذا التأثير ليس بعسير، إذا وعينا الدور الذى لعبه الشعراء الجوالون فى إشاعة الثقافة، وكان بينهم شعراء مسلمون، ومن ينشدون بالعربية أو العامية أو الرومانشية^(١)، بل إن انتقال الشعر العربى الفصحى إلى اللغة الرومانشية مترجماً، كان يتم بقدر أكبر مما نتصور، وضياح الأصل العربى لمثية الوقشى فى بلنسية، وعرضنا لها فى مكان آخر، ويقاؤها فى الشعر القشتالى الشعبى شاهد على ما أقول^(٢). ويدهى أن الشعر بالعامية، أى الزجل كان أكثر انتشاراً، وأشمل ذبوعاً، مما عليه الشعر الفصحى.

تلتقى الملاحم القشتالية مع القصائد القصصية العربية الأندلسية فى ألوان من المشابهات لا تأق عفواً، فكلتاهما تدور حول شخصية تاريخية حقيقية، وتعبر عن أحداث وقعت فى تاريخ قريب من اتخاذها شعراً، وأبطالها بشر فعلا، فلا تلجأ إلى شخصيات أسطورية أو خرافية لإعطاء القصة مزيداً من الأهمية، وتدور الحرب فيها بصفة عامة، حول قضايا داخلية، أو بسبب الصراع العائلى، وفى درجة تالية قد يكون عاطفياً، وفى كلنا الحالين تعالج الأمر على نحو طبيعى دون أن تستهدف مثلاً أعلى معددا تذييعه وتدافع عنه. وخصائص المجتمع العربى تبدو واضحة، مهما كان الشعب الذى تتحدث عنه، ففيها

(١) انظر فصل: الشاعر الجوال ص ٣٦ من هذا الكتاب.

(٢) انظر فصل: مرثية بلنسية ضائعة فى كتابنا: دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفة،

إجلال الكرم، وإحساس بالغ بالشرف، وحرص نادر على الثأر، والمبارزة في الحرب، والصليح عند اقتحام المعركة، والغارة وتقسيم الغنائم طبقاً لقوانين الشريعة الإسلامية، فخمسة للخليفة أو من يضطلع برسالته؛ والبقية تقسم بين المقاتلين: للراجل سهم، وللفارس سهان، وتتحدث عن السلائع، واستخدام العيون، أو الجوايس في القاموس العسكري الحديث. وتعكس على نحو دقيق واضح صورة التعايش بين المسلمين والمسيحيين، حياة حتى في الحرب فيها تسامح وتقدير وعفو، بين عامة الناس وسطائهم على الأقل، ممن كان الشاعر يؤلف الشعر لإمتاعهم، ظاهرة لا تجدها في كتب التاريخ، وهي تقدم وجهة النظر الرسمية، وتمثل رأى المستفيدين من إذكاء الصراع وحث الناس عليه، وإنه لأمر ذو أهمية بالغة أن القتال بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس، لم يأخذ في أية ملحمة قشتالية معنى وطنياً قومياً.



فإذا تجاوزنا التأثير العربى فى نشأة الملاحم القشتالية بعامه، إلى ملامح هذا التأثير فى ملحمة السيد على نحو خاص، أقدم ملحمة قشتالية وصلنا نصها كاملاً ومدوناً، كان علينا أن نضع فى الاعتبار عدة حقائق: أن النص الذى بين أيدينا ليس هو النص الأصيل الذى كُتِبَ قريباً من النصف الأول للقرن الثانى عشر، وأن إضافات أدخلت عليه، ومقاطع حذفت منه، ومواقف صوّرت لتواجه مواقف سياسية متغيرة وطائرة، ابتسرت بزوال دواعيها. مثلاً كانت الملحمة خلال فترة الصراع بين قشتالة وليون ترسم لنا نبلاء هذه فى صورة غير كريمة، فلما تغيرت الصورة السياسية، بزوال العداوة، وتوحدت الدولة والمملك والراية، تغيرت نظرة الشعراء لنبلاء ليون، فحذفوا من الملحمة كل ما يسيء إليهم.

وفي ضوء هذا الواقع يحق لي أن أفترض أن جانباً كبيراً مما يتصل بالإسلام والمسلمين دخله التعديل، وأصابه البتر، لقد أنشد الشاعر الملحمة لأول مرة وسلطان المسلمين في الأندلس كان متيناً، رغم كل الهزائم، وحضارتهم مزدهرة، وثقافتهم جذابة، وتشمل دولتهم الجانب الأعظم من شبه الجزيرة، وأكد أن تصور أن حظهم من أحداثها، كان أوفى مما هو عليه، وأن تقدير الشاعر لهم كان أوضح، وأن التعبيرات العربية، ألفاظاً وجملاً، كانت أكثر شيوعاً، وليس من المغالاة في شيء أيضاً أن أقول: إن نسخة منها بعامة أهل الأندلس كانت تُسمع بين المستعربين في الجانب الإسلامي، وبين المدجنين، أعني المسلمين الذين يقيمون في الجانب المسيحي، غير أن هذه قضية أخرى سوف أعود إليها في نهاية هذا الحديث، ويكفي أن نشير الآن إلى أن أول شاعر أنشد الملحمة كان مستعرباً، أي مسيحياً يعيش في الجانب الإسلامي، ويتكلم العربية لغة، أو العامية منها على أقل تقدير، يعيش المسلمون، وحياته اليومية مطبوعة بتقاليدهم، وأنه قالها في مدينة سالم، ومن الإشارات ما يحدد أنه كان ينشدها في ميدان المدينة الكبير، وكانت الجالية الإسلامية في مدينة سالم كبيرة، والمستعربون فيها قلة، لأنها - كما يهdy إليه اسمها - أنشأها مسلم بدءاً، ولم تكن موجودة قبل وصول المسلمين، وفيها دفن المنصور بن أبي عامر حين فجاه الموت قريباً منها عام ١٠٠١ م.

لا يمكن الجزم بأن الشاعر الجوال وهو ينشد ملحمة السيد احتذى قصيدة عربية معينة. أو ملحمة شعبية محدقة، لأن الأدب الشعبي في العربية، وفي كل اللغات، قطع مرحلة كبيرة من حياته يُردَّد شفاهاً، وظل لقرون عديدة موضع احتقار كبار الأدباء والمؤرخين فلم يسجله أحد، والإمساك بخيوطه وتتبع روافده أمر عسير المنال. لكنني أجد الكثير بين ملحمة السيد وسيرة بني هلال من

جوانب التوافق، فكلاهما رواية شعبية، غير ذات طابع أسطوري، وانتقلت شفاهاً عبر سنين طويلة، وتتناول أحداثاً وبشراً لهم أو لجلهم واقع تاريخي، لا ترتفع بهم إلى مصاف الآلهة، ولا تضيف عليهم من الصفات ما ينافي طبيعتهم البشرية، وكلا البطلين نائر على السلطة، منفي يقاقل لحسابه، وكلا الملحميين لا تتناول من قضايا العاطفة والحب إلا حب الرجل زوجته، وعطفه عليها، وخوفه من فراقها، وفرحه بلقائها، وتذكرها عند غيابها، وتجري على لسان الزوجة من العواطف، محزونة أو مبتهجة، مثل ما تجري على لسان الزوج، فهي تكيه مودعة، وتدعو له راحلاً، وتتعلق به بعيداً غائباً.

وتجد اليهود في كلتا الملحميين على صورة متقاربة، يشتغلون بالتجارة والصيرفة، وبالربا والرهنات، ومحرضون على المال حرصاً شديداً، وهم من أجل الربح ينافقون وبصانعون، ويستعينون دائماً على قضاء حوائجهم بالكتان. وتكاد صور الحرب أن تكون فيها واحدة، من قطع الطريق، وحجز الماء، وضرب الحصار، وتدمير المزارع، واستخدام الجوع سلاحاً، وتزخران بالحركة المستمرة، فما تكاد الواحدة تخلص من وقعة إلا لتبدأ في أخرى، ولا تغادر موضعاً إلا لتدخل في موضع آخر، ومن ثم فهما لا تلتفتان إلى ما تعودنا عليه في حياتنا اليومية المستقره الوادعة.

التأثير اللغوي العربي نلتق به في الملحمة خلال عدد من الكلمات العربية تُذكر بلفظها، وتُرسم في حروف لاتينية، دقيقة أحياناً، ومحرقة أحياناً أخرى، وأكثرها تداولاً أداة النداء «يا» Ya، ف نجد مثلاً ياسيد Ya Cid وياسيدي Ya Senor، وليس للنداء في اللغة القشتالية، ثم الإسبانية من بعد، أداة معينة للنداء، فإذا اضطرت إليه استخدمت الصوت Oh، ولم تذهب «يا» من اللغة الإسبانية المعاصرة كليّة، وإنما انفصلت عن معنى النداء، وأصبحت

تعبيراً عن التنبيه بصفة عامة.

وحرف التنبيه «ها»، والذي يسبق الضمائر المفصلة أحياناً، وأسماء الإشارة، وأصبح جزءاً من هذه الأخيرة، يأتي على هذا النحو في الملحمة فيسبق الضمائر القشتالية المقابلة للضمائر العربية، التي يمكن أن تسبقها «ها» التنبيه هذه، ولكن في نطقه العامي «أهو» أو «أهه» Afe، مثل Alevos أى ها أنتم، لأن F كانت هي و H سيان في قشتالية العصر الوسيط، وأحياناً يأتي في صورته العامية، ولكن غير مسبوق بالهمزة فيصبح Fe، أى «هه» عمالة، كقول الشاعر في الملحمة Fem ante vos ها أنا أمامكم، وهي ظاهرة تخلصت منها الإسبانية المعاصرة، باللغة المعلمة عن طريق الكتاب والمدرسة، ثم الصحافة والإذاعة. ففي مرحلة من تاريخ إسبانيا كان هناك من يحرص في شدة على تنقية الإسبانية، بالعزوف ما أمكن عن استخدام الكلمات ذات الأصل العربي، غير أن هذا الاتجاه خف الآن، لأن كل اللغات الحية سخية تأخذ وتعطي، في ضوء قوانينها، دون انتظار لقواعد تفرض عليها من خارجها.

وتستخدم الملحمة لفظ «حتى» Hasta مراداً به انتهاء الغاية، كما في العربية، فيقول الشاعر إن الغارات وصلت حتى القلعة Hasta alcala وبقي مستخدماً في الإسبانية المعاصرة، كما كان عليه في القشتالية القديمة، وكما هو في العربية الآن، ولو أنه في النصوص الحديثة يرسم طبقاً للإملاء الحديث hasta وهو حرف من أكثر ألفاظ لغة الحياة دورانا على الألسنة، فيقال: حتى الصباح، حتى قريب، حتى غداً، حتى أراك...

وثمة ألفاظ أخرى، فطليلة atalaya جيش السيد تقوم بالغارة algara ومن بين ما يلبسه السيد الكوفية Cofia واسم جيشه المحلة almohalla، ويطلق أحياناً

على المكان الذي يعسكر فيه. وكلمات : القائد alcaide والقاضي alcalde والمصلّى almoçala وتعنى السجادة، وكان العرب يطلقون على أسرة كونت « كاريون » اسم Beni Gomez فتأتى الملحمة وتحدث عنهم فى هذه الصورة Vanigomez بدل أن تقول أبناء غومث بالقشتالية hijos de Gomez، وغيرها.

وإذا تركنا الكلمات إلى التعابير، فسنجد بينها ما هو من خصائص اللغة العربية، ويكاد يكون ترجمة حرفية لها، ونكتفى منها بتعبير يتردد كثيراً وهو بكى عينه Llorar de los ojos أو بكى من قلبه Llorar de Coraçon وهذا التعبير الأخير لا يعرفه أى أدب أوربي باستثناء الأدب الإسباني، والشعر البروفنساى.



فإذا تجاوزنا الألفاظ والتعابير إلى النظم والتقاليد، وجدنا السيد فى الملحمة، يقسم الغنائم طبقاً للشريعة الإسلامية، فله الخمس بوصفه رئيساً لتابعيه ومستقلاً عن أية دولة أخرى، والباقي يقسم على المقاتلين، للراجل سهم وللفارس سهان. ويجرى القتال على الطريقة العربية، فتبدأ الحرب بالمبارزة، وعلى قائد الجيش عند بدء الهجوم أن يتقدم ويصيح باسمه، وينادى : هل من مبارز؟ فإذا احتدم القتال، راح القائد يجول بين الصفوف ويهتف باسمه عالياً، ليثبت جنده ويبث فيهم الشجاعة، ويذكر بأنه معهم حتى يقاتل ، والسيد فى كل معاركه لا يكاد يتقدم حتى يردد اسمه عالياً. ونعرف من الملحمة أنه عند الحرب ينادى المسلمون النبي محمداً يستلهمونه النصر، بينما يصيح المسيحيون باسم القديس يعقوب، شنت ياقب Santiago فى المصادر العربية القديمة، وكانت الدية تقبل فى حالات القتل الخطأ، عوضاً عن القصاص، وتنهض بها الأسرة كلها، وهو نظام إسلامى بحت، وليس له مثيل فى شريعة المسيحيين،

أما في حالات القتل العمد فلا بد من الثأر، والتنازل عنه في حكم المستحيل، على نحو ما أشرنا إليه من قبل.

ونجد فيها التصافح باليدين عقب أى اتفاق، تأكيداً على الوفاء به، وقد يكون التسليم باليدين علامة الرضا على أمر مطلوب، دون حاجة إلى موافقة مسبقة، وهى عادة لا تزال جارية حتى اليوم في قرى إسبانيا الصغيرة. ويكثر في الملحمة تقبيل اليدين، من الصغير للكبير، ومن الأقل للأعظم احتراماً، ومن الزوجة لزوجها، والبنات لأبيها حباً وإجلالاً، ومن الفارس للملك خضوعاً وتبعية، وقد تكون طلباً للمعروف أو شكراً عليه، فاليهوديان اللذان أودعها السيد صندوقه، يقبلان يديه شاكرين، ثم يعيدان تقبيلها طالين معروفاً، وتعبير يقبل يدكم في الملحمة تعنى: يطلب منكم معروفاً.

ومظاهر التعبير عن الحزن في حالات الموت أو الفراق أو الهزيمة، أو غيرها أن يرسل المرء لحيته، وألا يقص شعر رأسه، وألا يقلم أظافره أحياناً. وقد يفعل هذا معلقاً على وعد أو قسم أو نذر يجب أن يبره أولاً، وهى ظاهرة لم تختلف تماماً، ومن أبرزها أن فيديل كاسترو، زعيم ثورة كوبا ورفاقه، أقسموا وكانوا مبعدين عن وطنهم منفيين، ألا يخلقوا لحاهم إلا بعد تحرير وطنهم، فلما حررّوه حلقها بعضهم، وأبقتها الغالبية إلى ما بعد الانتصار على التحديات الكبرى التى تواجههم فى معركة البناء الداخلى. والإمساك ببلحية شخص آخر فى مقام الاختلاف إهانة بالغة، وكان السيد حريصاً دائماً على تجنبها، فهو يمسك ببلحيته، محافظاً عليها، ومحذراً فى نفس الوقت، ومن نافلة المرء الإشارة إلى أن هذه العادات عربية، ومانزال حية فى مدننا وقرانا حتى اليوم.

ويتردد إكرام الضيف، والمبالغة فيه، على الطريقة العربية، فى كل أناسيد

الملحمة، ومجد الخيل في حفلات النصر والسباق، والمهرجانات العائلية والعامية، تزين رقابها وسروجها، باللامع من الستائر، والمذهب من الأجراس، والحريز الذى يسرج به السيد خيله أو يرتديه، مصرى مستورد من الإسكندرية، ومجد ابنتى السيد تتزوجان مرتين، وهو تأثير إسلامى بحت، ويعزز رأى دوزى فى أن السيد كان نصف مسلم ونصف مسيحي، ورأى خوسيه كمون أثنار José Camon Aznar، أستاذ تاريخ الفن فى العصور الوسطى، الإسلامى والمسيحي، والعميد الأسبق لكلية الآداب فى جامعة مدريد، فهو يرى أن السيد كان مستعرباً، أى مسيحياً يقم بين المسلمين، يتحدث لغتهم ويمتدنى ما هم عليه من تقاليد، لأن الملحمة صريحة فى أن بنتى السيد تزوجتا لثان مرة وأن تركهما للزوجين الأولين كان انفصالا ولم يكن ترملا، والكنيسة الكاثوليكية لا تقر الطلاق بحال، وبخاصة للعائدين من الناس، غير الملوك والمتمين إلى الأسر الكبيرة أو الحاكمة.



إلى جانب التأثير اللفظى والتعبيرى، والتقاليد والعادات، نجد من بين قصص الملحمة ما هو من أصل عربى أكيداً. فعندما نرى الملك ألفونسو السادس السيد من قشتالة، ولم يكن معه ما يواجه به الحياة هو وتابعوه، أراد الاقتراض من يهوديين فى برغش، هما واكيل وفيداس، يقومان بالصيرفة، ويقرضان بالربا ومقابل رهن؟ ولم يكن مع السيد ما يرهنه لهما فقرر أن يمتال عليهما. أحضر صندوقين بفض وإحكام، ومكسوين بالجلد المزخرف، ومساميرهما وأقفالهما مذهبة، وملاهما رملا ليثقل وزنها، وأوهم اليهوديين بأن فيها كل ثروته، من ذهب ومجوهرات، ولا يستطيع أن يحملها فى رحلته منفياً، وفى حاجة عاجلة إلى المال ويريد رهنها، فقبلا مسرورين، ودفعوا له مقابلها

ست مائة مارك، لأجل لا يزيد على عام. وهى خدعة فى غير موضعها، ولكن الشاعر يدافع عنها بأن السيد كان مضطراً، وأن اليهوديين كانا البخل مجسماً.

الخداع على هذا النحو رائج فى الحكايات العربية، وبخاصة فى قصص « ألف ليلة وليلة »، وغيرها من الحكايات الشعبية التى تعود إلى العصر الوسيط؛ وحكاية الخداع بالرمل كانت معروفة وشائعة على نحو واسع فى الأندلس، وأعطاهها المزيد من الذبوع والانتشار فى الأدب الأندلسى المسيحى وعنه نقلتها الآداب الأوربية،، يهودى أندلسى يدعى رابى موسى سقردى، وكان معاصراً للسيد، ويعيش فى الأرض التى كانت مسرح أحداثها، فهو ينسب إلى مدينة وشقة، واحدة من كبرى مدن مملكة سرقسطة، وبها ولد عام ١٠٦٢م، ثم اعتنق الكاثوليكية واتخذ اسم يدرو ألفونسو عام ١١٠٦م، وألف كتاباً أسماه « تربية العلماء *Disciplina Clericalis* »، وليس فيه من المسيحية غير المقدمة والعنوان، وبقية حكايات عربية، وحتى تركيب الجملة التى يستخدمها فيه سامية أكثر منها لا تينية؛ ويُعتقد أنه كتبه أولاً باللغة العربية، ثم قام بترجمته إلى اللغة اللاتينية من بعد. وهو نفسه يصرح بأن جانباً من كتابه يضم أمثلة وحكماً من الفلاسفة العرب، والجانب الآخر أساطير وأشعاراً؛ أو مواعظ على ألسنة الطير والحيوان، وتبلغ حكاياته العربية ثلاثين حكاية، وبعضهم يبلغ بها أربعاً وثلاثين، أو تسعاً وثلاثين. ونال فى عصره شهرة واسعة، ولقى إقبالا عظيماً، ونُشرَ تحت عناوين كثيرة، وفى لغات مختلفة، رومانسية أو لا تينية، وطارت شهرته عبر كل الأفاق، فعرفته القشتالية والقطلونية والبروفنسالية والبرتغالية والفرنسية والألمانية والإيطالية، والإسبانية فى أكثر من ترجمة.

من بين حكاياته العربية واحدة تقول: إن رجلاً كان يريد الحج إلى مكة؛ فلما أعوزته النقود احتال عليها، فدفَع إلى مراب يهودى عشرة صناديق مليئة

بالاحجار، أقالها مفضضة، وطلاؤها جيد، فجازت الخدعة على المرابي، وأعطاه المال الذي يمحج به. وإذا استثنينا عدد الصناديق، والهدف من طلب المال، فإن التشابه بين القصتين يكاد يكون كاملاً. وما من شك في أن الشاعر كان يعرف القصة العربية، قرأها في كتاب بدرو ألفونسو، أو سمعها حكاية من أفواه الجماهير، والقصص الذي من هذا النوع كثير، وسهل الذبوع والانتشار، وخدعة الصناديق هذه سوف نجد لها بعد قرنين من الزمان عند الكاتب الإيطالي بوكاشيو Boccio (١٣١٣-١٣٧٥) في مؤلفه الشهير Decameron.

وثمة قصة أخرى في الملحمة ذات أصل عربي، فبينما كان السيد في قصره مستلقياً على سرير، ومعه صهرا، زوجا بنتيه، أميرا «كاربون» وحوله خاصته، إذ خرج أسد من قفصه في حديقة القصر، فهرب الناس جميعاً، واختبأ الأميران وخافا، وأوشكا أن يموتا من الرعب، وأخذا يترحمان على أيامها في «كاربون»؛ وأنها لن يريها مرة أخرى. فما كان من السيد إلا أن نهض من سرير، واتجه إلى الأسد، فلم يكذب هذا يراه حتى تلاشت صولته فأمسك السيد برقبته، وانقاد له الأسد طائعاً ومضى به السيد حيث أعاده إلى قفصه من جديد^(١).

أقول إن هذه القصة ذات أصل عربي؛ رغم أن عدداً من المستشرقين راحوا يبحثون عن أصل لها في كل الآداب إلا في الأدب العربي، ربما لأنهم يجهلون، ذلك أن لقاء الأسود وترويضها أو الانتصار عليها قديم جداً في الأدب العربي، ولدينا منه ألوان مختلفة، وأقدم مظهر له فيما أعرف، قطعة من روائع القصيد، لبشر بن عوانة، شاعر جاهلي من القرن السادس الميلادي، يحكى

(١) انظر القصيدة رقم ١١٢.

لصاحبه؛ في خيال متع وقص بديع؛ ولغة سلسلة، كيف لقي الأسد؛ وكان له شجاعة وإقداماً؛ نصحه أن يمضي لحاله؛ وأن يلتمس قوته عند غيره، لكن الأسد لم يسمع له ومشي إليه؛ لما كان من بشر إلا أن سل مهنده؛ وقد أضلح الأسد؛ فخر مضرجاً في دعائه :

وقد لاقى الهزير أخاك بشراً	أفاطم لو شهدت ببطن خبت
هزيراً أغلباً لاقى هزيراً	إذا لرايت ليشاً أم ليشاً
محاذرة، فقلت: عقرت مهرا	تبنت إذ تقاعس عنه مهري
رايت الأرض أثبت منك ظهرا	أنل قدمي ظهر الأرضي إن
لعمر أبيك قد حاولت نكرا	تحاول أن تعلمني فراراً
محددةً ووجهاً مكفهراً -	وقلت له - وقد أبدى نصالاً
طعاماً إن لحمي كان مرأ	نصحتك فالتنم ياليت غيري
وأطلب لابنة الأعمام مهرا	وانت تروم للأشبال قوتاً
ويترك في يديك النفس فهرا	فقيم تروم مثلي أن يولي
وخالفني كأن قلت هجرا	فلما ظن أن النصح غش
صراعاً كان إذ طلباه وعرا	مشي ومشي من أسدين راما
فقد له من الأضلاع عثرا	وأطلقت المهند من يميني
هدمت به بناءً مشمخراً	فخر مضرجاً بدم كان
قتلت مناسي جلدأ وفخرا	وقلت له: يعز علي أن
يحاذر أن يعاب فت حراً	فلا تجزع فقد لاقيت حراً

غير أن القصة التي أراها أصلاً مباشراً لما في الملحمة، لتشابه الظروف ولأنها كانت رائجة في المغرب والأندلس، وجرت أحداثها في الوقت الذي كان فيه الشاعر يتبأ لتأليف ملحمة، قريباً من عام ١١٤٠م، تتصل بأمير الموحديين.

عبد المؤمن بن علي، وكان الأندلس يكوّن جزءاً من إمبراطورية الموحدين، وخلصتها أنه عندما تُوفى محمد بن تومرت، مهديّ الموحدين، عام ١١٣٠ م، لم يعلم بموته أحدا سوى عبد المؤمن بن علي (١١٠٠-١١٦٣)، فأخفى خبره، ولبث يحكم باسمه ثلاثة أعوام كأنه حيّ، وأدرك أن أعضاء مجلس العشرة^(١) الذين إلى جانبه، يطمحون في مثل ما يطمح إليه من تولي الإمارة، وخشى أن تمزق الخلافات والحرب الأهلية الإمبراطورية الوليدة، فقرّر أن يحتال للأمر. فرى أثناء قيامه بالحكم شبلا، روضه حتى صار أنيساً كالكلب، ودرّب طائراً على أن ينطق بهذه الكلمات: «النصر والتحكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين، سند المملكة وناصر الدين». ولما كمل ترويض الأسد، وتدريب الطائر، أقام حفلاً دعا إليه شيوخ الموحدين وأكابرهم، وأقام منصة عالية جلس في صدرها، ثم نعى المهديّ إلى الحاضرين، بين مظاهر الحزن العميق، وقال إنه أعرب في كلماته الأخيرة عن أمنيته أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية، وأن يختاروا من بينهم رجلاً يولونه الزعامة، ولما انتهى من خطبته ساد صمت رهيب، وإذا بطائر ينطق فجأة: «النصر والتحكين، للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين، سند المملكة وناصر الدين». وفي الوقت نفسه انفتح باب خفي كان يحجب الأسد، فانطلق مزججراً بين الحاضرين، منقوش الشعر، مكشّر الأنياب، رافعاً ذيله، وعيناه تقدحان شراً، فدعر الناس وارتعدت فرائصهم، فبادر عبد المؤمن إلى الأسد، فأنس إليه في الحال، وأخذ يلحق يديه في هدوء، فدهش الحاضرون، ورأوا فيما حدث معجزة،

(١) مجلس العشرة أحد مجلسين كانا إلى جانب ابن تومرت أمير الموحدين، يمازنانه في الحكم، ويتكون من عشرة أعضاء، هم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته، وكان الشان يتكون من خمسين عضواً، يتمون إلى قبائل شتى، وكان ابن تومرت يسميهم جميعاً بالمؤمنين.

ودعوة إلى تولية عبد المؤمن بن علي، فبايعوه بالإمارة راضين^(١).

تلك هي القصة العربية، ولا فارق بينها وبين قصة الملحمة إلا في الجزئيات وأسماء الأبطال، وظروف المناسبة، وهي هنا كما هناك أسطورة مصنوعة، فورت ابن تومرت، وتولية عبد المؤمن، أوردتهما لنا عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» وهو مؤرخ مغربي عاصر الأحداث، فلم يشر إلى شيء من هذه الأفاويه، وفصل القول في الأمر، فذكر أن ابن تومرت دعا «جماعته» قبل أن يموت بأيام، فخطبهم وأوصاهم، وكان هو الذي اختار عبد المؤمن خلفاً له، علانية وعلى رؤوس الأشهاد.

وكما وجدنا أثر قصة الخداع بالصناديق المملوءة رملاً في أدب بوكاشيو الإيطالي، فستعبر قصة الأسد جبال البرانس إلى فرنسا، ونجد صداها في ملحمة أدنيه Adenet، ففي أسطورة «برت ذات الأرجل الطويلة Berté aus grans Piés» منها؛ وكتبت قريباً من عام ١٢٧٥، يهرب أسد الملك من قفصه، ويرعب كل من في القصر، فيتصدى له بيبينو Pepino، وهو في العشرين من عمره، فيصارع الأسد ويتصر عليه ويقتله.



يبقى الجانب الآخر من القضية، وهو أدق معالجة، وأظلم طريقاً، وأفقر توثيقاً. لماذا أغفلت مصادر الأدب الأندلسي التي بين أيدينا الملحمة فلم تشر

(١) أورد هذه القصة ابن أبي زرع الفاسي في كتابه «الأنيس المطرب بروص القرطس»، وأخبار ملوك المغرب ومدينة فاس»، ص ١٢٠، طبعة المستشرق كارل تورنبرج، أسالة ١٨٤٣، وأرتضيتها أسطورة، ولا أطمئن إليها تاريخياً، وذكرها كتاب «الحلل المشوية في ذكر الأخبار المراكشية»، المطبوع في تونس، والمنسوب وهما إلى لسان الدين بن الخطيب، ص ١١٣، ولكن بصورة أخرى، وفي مناسبة لا صلة لها بتولية عبد المؤمن إمارة الموحدين.

كان حظ السيد شخصاً في المصادر العربية على النقيض من الملحمة، فقد عُنى به معاصروه، وتحدثوا عنه مؤرخين، ذكروا من أخلاقه ما كان جميلاً يحمد، وما كان سيئاً يذم، وأورد له ابن بسام في كتابه الذخيرة صفحات، وألف ابن علقمة في حصاره لبلنسية كتاباً ضاع نصه في العربية، غير فقرات نقلها من جاءوا بعده، كابن عذارى ولسان الدين بن الخطيب، ونقلت معظمه مترجماً إلى القشتالية «مدونة تاريخ إسبانيا العام»، وتميزت أخبار المصادر العربية بالدقة والتحرى والموضوعية، بينما جاءت روايات المصادر المسيحية، في غير ما نقلت عن العربية، أساطير وحكايات التقطت من أفواه الشعراء الجوالين بما فيها من خيال وتزويد وأوهام، قصد بها جذب انتباه السامعين. وإذا فلم يكن السيد نفسه غريباً عن المصادر العربية، أما الملحمة نفسها فكأنها تنتمي إلى عالم آخر غير الأندلس، قصى وعيد.

ينبغي أن نستبعد أصلاً أن الأندلس الإسلامي كان مجهل الملحمة تماماً، مثقفيه وعامته، في الوقت الذي كان فيه خاصة الأدباء في بغداد يتناشدون إلياذة هوميرو، أو شيئاً منها، في نصها اليوناني، أو منقولة إلى السريانية، وكتبت بعيداً عن العرب، في أرض اليونان، وتنتمي إلى أدب يفصله عن قيام الدولة العباسية قريباً من ألف وستمئة عام. . . بينما هؤلاء يعيش الشاعر بينهم، وينشد الملحمة في مجامعهم، وإذا فعلينا أن نبحث لسكوت المصادر عن سبب آخر غير الجهل بها.

أول مؤرخ أدبي وصلنا كتابه، وعاش بعد إنشاد الملحمة زمناً يسمح له بأن يتابع أخبارها، هو أبو كز ابن خير الأشبيلي، المتوفى عام ١١٧٩م، لكن مؤلفه «فهرسة ما رواه عن شيوخه» كما ينبيء عنه عنوانه، مجرد قائمة بأسماء

الكتب التي درسها، أو أجزله روايتها، مما تثقف به في صباه وبدء شبابه، وهي مرحلة من العمر تسبق إنشاد الملحمة، فبديهي ألا تقع الملحمة بين الكتب التي تلقاها عن أساتذته، لأن مكانها الذي تسمع فيه هو قصر الأمير أو سوق المدينة.

ويأت بعده، ممن عنوا بالتاريخ الأدب، ابن بشكوال المتوفى عام ١١٨٢م **والضبي** المتوفى عام ١٢٠٢، وانجبت عنايتهم إلى التراجم، ومؤلفاتهم تكملة لكتب أخرى سبقتها، فهم مقيدون بمنهج سابقهم، وبطبيعة المادة نفسها، ومؤلف الملحمة شاعر جوال ومجهول، لا ترتفع به مهنته إلى أن يُترجم له، وليس ثمة فرصة متاحة للحديث عنه، حتى لو أراد المؤلفون.

أما **ابن الأبار** عام ١٢٦٠م، فكان مؤرخاً أوضح منه أديباً، وسياسياً أكثر منه مؤرخاً، وشغل بأحداث عصره، ومؤلفاته تدور حولها، فلم يتسع له وقته ليهبط حيث الشعراء الجوالون، وهو بلنسي الأصل، وعاش أيامه في زمن مشابه لما كانت عليه بلنسية أيام السيد، فقد زحف عليها جاقمة البرشلونى، خاتمة الأول الغازى Jaime I el Conquistador، واستولى عليها عام ١٢٣٨، وسفر ابن الأبار بين المدينة وأمراء المسلمين في الشمال الأفريق يطلب عونهم، وانتهت به الإقامة في تونس، حيث مات مقتولاً عام ١٢٦٠م؛ وهو يأت في «الحلقة السيرة» على ذكر السيد مرتين، ولكنه فيها عالة على ابن بسام.

هؤلاء الأدباء المؤرخون ابتداء من ابن بسام، وانتهاء بابن الأبار، كانوا يحررون تراجمهم وأخبارهم، فيما يبدو لى، داخل اتجاه سياسى محافظ، يقف في وجه اتجاه شعبي زاحف، مضاد للاتجاه العربى، يهاجمهم أولاً من جانب اللغة والأدب، يحتقر ما يوقرون، ويستخف ما يعظمون، وينشئ لنفسه أدباً يتغنى به وينشده، فحال هؤلاء بين هذا الأدب وبين أن يصبح تراثاً مسجلاً ومكتوباً،

وهذا ما يفسر لنا عزوفهم عن الموشحات وجمعها، أو تضمين مؤلفاتهم شيئاً منها، رغم أنهم ترجعوا لعدد من الوشاحين كشعراء أو سياسيين^(١) ومثل هؤلاء لا يتوقع منهم، ولا يطلب، أن ينتهوا للملحمة تمجد السيد، وتكتب في الرومانشية.

كان ابن سعيده، المتوفى عام ١٢٧٦ م، أول أديب أندلسي نلتقى به وقد خفت قبضة الاتجاه المحافظ، فلم يتردد في أن يضمن كتابه «المغرب في حلي، المغرب»، وقد تعاون على تأليفه مع أسلافه من أسرته، موشحات وأزجالاً كتبت في العامية الأندلسية، لكن هذا المؤلف العظيم ضاع، ولم تصلنا منه غير أوراق متناثرة، عكف الدكتور شوقي ضيف على جمع وترتيب ما وجده منها خاصاً بالأندلس، فجاء في مجلدين، وهو قليل من كثير، فأصل الكتاب يقع في خمسة عشر مجلداً، خص الأندلس منها بستة. فهل تضم الأجراء الضائعة إشارات إلى ملحمة السيد؟ أكاد أتصور هذا، فقد وقف الرجل جزءاً من مؤلفه على الأندلس المسيحي، أسماء «كتاب لحظة المريب؛ فيما بقي من جزيرة الأندلس لعباد الصليب»، وصلنا عنوانه، وصفحة واحدة منه.

وبعد ابن سعيده تحدى بالأندلس الإسلامي أخطار جسام، وتخطفه النوائب من كل جانب، ويقفر في مجال الأدب، ويضيع ما يكتب وماورث مع الزمن، فلا نعرف مؤرخين أدباء بعده غير اثنين، لسان الدين بن الخطيب، وكان سياسياً ووزيراً، وشاعراً عذياً، ووشاحاً رقيقاً، وناثراً مجوداً، لكنه يقف، بحكم تكوينه الطبقي والثقافي، في الصف المناويء للأدب الشعبي، وانحصرت حياته بين غرناطة وشمال أفريقية، وكانت غرناطة على أيامه نهياً

(١) فصلت القول في هذا الاتجاه عند دراستي لابن ساع وكتابه الذخيرة، في كتاب «دراسة في مصادر الأدب»، الطبعة السادسة، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣.

موزعاً بين القلق والثورات والحروب، فلم يلتفت مؤرخ غرناطة ووزيرها إلى ملحمة السيد، كان مشغولاً بما هو أفدح وأخطر. أما معاصره ابن خلدون، فإقامته بالاندلس كانت قصيرة، وارتبطت اهتماماته بفلسفة التاريخ فلا يعرض للقضايا الأدبية إلا ما كان منها تفسيراً لمذهبه، أو يتخذ منه الشاهد والاقتباس.

كان إعراض العرب عن ترجمة الإلياذة والإفاذة منها يرجع إلى أسباب أهمها الدين، فمن الطبيعي أن يُعرض المسلمون عن شعر يزدحم بالآلهة المتصارعة والمتعددة والمختلفة، والإقبال عليها فوق طاقة شعب موحد، يجل الإله ويرتفع به فوق الرذائل، ولم يكن المسلمون وحدهم في هذا الاتجاه، فسارت المسيحية على أيامها الأولى في نفس الطريق، فكانت تحرم تدريس الإلياذة خشية أن تفسد عقائد أبناء المسيحيين. وربما كان من الأسباب أيضاً صعوبة فهم اللغة اليونانية على المثقفين العرب، وعجز المترجمين السريان عن نقلها إلى العربية أدباً، وشهنامه الفردوسي وقد خلت من هذه الصعوبات ترجمت إلى العربية فعلاً، ترجمها الفتح بن علي البغدادي الأصفهاني، بإشارة من الملك عيسى بن العادل أبي بكر الإيوبي. لكن ملحمة السيد كتبت على أرض الأندلس، وبين المسلمين، وصانعها كان يجيد العربية بالقدر الذي يجيد فيه اللغة القشتالية التي كُتبت فيها، وأنصور أن عامة المسلمين كانوا يفهمونها، إذا أنشدت في نصها الأصلي، على النحو الذي كان يفهمها فيه عامة المسيحيين، وتصور بطلا نصف مسلم ونصف مسيحي، تصويراً واقعياً بلا خرافات ولا أساطير، وكانت على ما رأينا تحمل طابعاً إسلامياً في تقاليدها، وما تحكى من عادات، ولأن يهملها كتاب محققون الأدب الشعبي فثيء يعرفه التاريخ في القديم والحديث، في الشرق والغرب، أما أن تصمت عنها كل

الوثائق، فشيء أعلمه بأن مصادر الفترة المتأخرة التي تلت إنشادها، وربما تضمنت شيئاً عنها، ضاع معظمها أيام الفتن، أو بعد أن سقطت دولة المسلمين.

كذلك نفتقد أية محاولة لتقليدها بين شعراء الأندلس المسلمين، في شعر فصيح أو زجل عامي؛ وهي ظاهرة واضحة التفسير، فالأندلس الإسلامي لم ير بعد المنصور بن أبي عامر قائداً عظيماً يستحق أن يُكفى ويُمجّد، لقد عرف الصراع المستمر مع الأندلس المسيحية شجعاناً لا يهابون الموت، وجنداً يقاتلون بشرف؛ لكن الفارق بين الشجاعة والبطولة كبير.

ومع انحدار شمس الأندلس الإسلامي إلى المغيّب أصبحت غاية الشاعر أو الأديب أن ينتهي به المطاف إلى بلاط أمير أو كبير، يشاركه خُلّيّ البال متعه المنحلة، والشاذة أحياناً؛ وحولّ الترف البالغ صلابة الحكام إلى رخاوة، وقدرتهم إلى عجز، وقعد بهم عن التدبير المحكم والرأى المصيب، وجعل الشعراء والأدباء لا يرون أبعد من لحظتهم، ولا يفكرون إلا في يومهم؛ مجالس شراب، ومخادنة نساء، فقصروا عن كل إبداع أصيل، وأى فنان لا يستطيع أن يبدع إذا لم يعرف القلق ويعايشه. وكان العامة في يأس مطبق، همومهم كبيرة، وأحزانهم طافحة، وحقدهم على الحاكمين دفين، ومع العجز عن التغيير؛ تغيير الحاكمين وتغيير الواقع، سجنوا أنفسهم داخل ذواتهم، وتركوا القافلة تسرع نحو الهاوية بلا أبطال ولا أمجاد.